أدب الصلاة

علي رضا بناهيان

أدب الصلاة

الكتاب

ترجمة العنوان الأصلي

الطبعة الثانية: ٢٠١٨ م - ١٤٣٩ هـ

ISBN 978-614-464-028-9

دار المودة
للترجمة والتحقيق والنشر

دور
الصلاة
في حياة الإنسان

تأليف

إعداد

ترجمة

نشر وتوزيع

طباعة

الفهرس

لا بد للإنسان مِن حياةٍ ملؤها الفَرح، ومن روحٍ دائمةِ البهجة والحيويّة. إذ لا ينبغي أبدًا لحياتنا، نحن البشر، أن تكون مصحوبة بالكآبة والنفور. فالعين لا تُبصر جيّدًا إلا إذا كان صاحبها مسرورًا ومليئًا بالحياة. لا يكون العقل كفوءًا مبدعًا إلا إذا انشرح الصدر. لا يَنتَظِم عمَلُ القلب إلا إذا أحسّ بالبهجة، وهو إن انتظم غمرَه حبُّ الآخرين وأصبح رؤوفًا بالجميع.

وإنّما يصبح المرء عزيزًا، حتّى عند الله تعالى، إذا صار عيشه حلوًا. «فالعبادة عن شُكر» هي أروع ألوان

العبـادة، لكنّهـا خاصـة بالنـاس السـعداء الذيـن يحيون فـي غمرة الطـراوة والنعمة، فهم يسـجدون لله من شـدّة بهجتِهـم، ويطـول سـجودُهم لأنّهـم غارقون فـي لذّات العالـم ويريدون شـكر ربّهـم عليها.

لكـن مـاذا نصنع كـي تصفـو حياتُنـا ونصبـح قادرين علـى العيـش عيشًـا حُلـوًا، ومـن ثـمّ ـ طبعًـا ـ علـى أن نعبـد الله عبادة عذبـة؟ وماذا نفعل كـي لا نكون كأولئك الذيـن اكتشـفوا اللـذّات لتوّهـم فإذا بهـم يتلهّفـون لها، فتراهـم يسـرعون إلـى لـذّةِ كلِّ معصيـة، ويسـتخرجون الخمـر من كلّ مـا يتوهّمونـه دَنًّا[1]؟

الجـواب واضـح: إننـا إذا غذّينـا أرواحَنـا بعبـادة الله وذكـره[2] فستُغمَر حياتُنـا بالنشـاط والبهجـة والحيويّة وتصيـر حلـوة بأقـلّ قَدر مـن النِّعَـم والمواهـب. فنحن

١- الدَّنّ: برميل أو وعاء ضخم لحفظ الخمر والخلّ ونحوهما.

٢- قـال الصـادق عليـه السـلام: «خلَـقَ الله القلـبَ طاهـرًا صافيًـا وجعَـلَ غِـذاءَهُ الذِّكـرَ والفِكـرَ والهَيبَـةَ والتّعظيـم» (مصبـاح الشـريعة، ص١٢٤).

البشـر نحتاج بشـكل أساسـيّ إلى الله عزّ وجلّ نفسه، لا إلـى النِّعـم التي نبغـي الحصول عليهـا منه [1]. ومـا دُمنا بحاجـة إلـى الله تعالـى نفسـه فـلا بـد أن نسـتمدّ الطاقة والحيـاة منـه مباشـرة، وإلاّ فسـتضعُف «بطّاريـة» روحِنا وسـنموت شـيئًا فشـيئًا، أي سنمسـي موتـى القلوب.

أمـا الطريـق إلـى أن نسـتمدّ الطاقـة مـن الله بشـكل مباشـر فهـي «العبـادة». فالعبـادة تعمـل علـى وصـل الـروح بمنبع القـدرة والحيـاة[2]، وضبطِ روح الإنسـان وأعصابـه. بـل إنّ للعبـادةِ أثـرًا إيجابيًّـا علـى أجسـادنا أيضًـا؛ فحتّـى خلايانـا تصبـح مع العبادة أشـدّ رأفـةً بنا، ذلك لأنّهـا جميعًا عاشـقةٌ لربّها مسـبّحةٌ لـه[3]. والعبادة تشـحَن الـروح من أجـل طاقة أكبـر وحيويّة أفضـل. إذًا

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (سورة فاطر، الآية ١٥).

٢- عـن أميـر المؤمنيـن علـيّ عليـه السـلام: «مُداوَمَـةُ الذّكْـرِ قُـوتُ الأرواح» (غُـرَر الحِكَـم، ص٧٠٩).

٣- ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ (سـورة الإسـراء، الآيـة ٤٤).

فمـن الطبيعـيّ أن تغـدو الحيـاة أجمـل والعبوديّة أحلى بالعبادة، ويُمسـي الإنسـان ـ بعـد أن أدّى عبـادةً جيّدة ـ كالطفـل الـذي أخـذ مـن حُضـن أمّـه القَـدْرَ الكافي من الطمأنينـة، فـإذا بـه الآن أكثر اسـتعدادًا لخـوض مُعترَك الحيـاة. وهـو، لذلـك، سـينعم بحيـاةٍ أكثـرَ هناءً.

أمّـا إذا لـم تتحسّـن عبادتُنـا فمهمـا امتـلأت حياتُنـا بالمسـرّات وتوفّـرت لنـا أسـبابُ الغِنـى فسـنظلّ نعيش حالـة مـن اليـأس وخيبـة الأمـل[1]. فلأنّنـا لا نتمتّـع بالكمّيـة الكافيـة مـن البهجة والاتّـزان فليس باسـتطاعة أيّ مُتعـةٍ أن تـروي عطَشَـنا وتمدّنـا بالنشـاط كمـا يلزم.

وقـد يلزمُنـا الإتيـان بالدليـل لبعضهـم مـن أنّـه: مـا الـذي يجعـل العبـادة مثـارًا لبهجـة روح الإنسـان وحياتهـا؟ ثـمّ مـا علّـة ما نـراه من ظاهـرِ الابتهـاج لدى الكفّـار بـالله؟

١- ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (سورة طه، الآية ١٢٤).

ولا يتّسع المجال هنا لأزيد من هذا التوضيح والبيان، لأنّ موضوع بحثنا الأساسيّ هو «الطريق إلى العبادة الجيّدة». ويتعيّن اجتياز هذه المقدّمات على عجل.

على أيّ حال فإنّ ما يجعل الإنسان يكتفي بالحدّ الأدنى من نِعَم الدنيا ولا يشعر بالحاجة إلى المعصية هو العبادة تحديدًا. والعبادة ـ بالمعنى الخاصّ للكلمة ـ هي أن تترك كلّ ما يشغلك وتقف بين يدَي الله عزّ وجلّ بالطريقة التي أمركَ بها، وتفكّر به، وتشتغل بذكره، وتجعل جميع حركاتِك وسكناتك خاضعة لأوامرِه. إذًا فالعبادة بالمعنى الخاصّ للكلمة تعني الصلاة.

لا تقُل يا صديقي: «أنا لستُ بحاجة إلى التمتّع بالحيويّة والسرور»، وإلاّ تلقّيتَ ردًّا عنيفًا! أجل هناك مجموعة من الناس ليسوا بحاجة إلى البهجة والحيويّة، وإنّ لهم مطالب أهم، وهم اللصوص، فحاجتهم الوحيدة هي أن لا يقعوا في قبضة الشرطة، وهم لا يفكرون بأي شيء آخر.

المجموعة الأُخرى هم المُدمِنون المحترفون، فشغلهم الشاغل دومًا كيف يدّخرون المال لمخدّراتهم التي إذا لم يحصلوا عليها ماتوا من شدّة الألم. إذًا فقمّة سعادة هؤلاء هي في الفرار من ألم الإدمان الفتّاك، وهم ـ لذلك ـ لا يفكّرون في لذّة يستحيل عليهم بلوغها. ثمّ إنّ بعض المكتئبين من الناس أكثر راحةً عندما يكونون غارقين في أحزانهم، ولربّما استمتعوا بمرضهم هذا أيضًا، وهم يستشعرون الرضا من أنّهم قد حَكَموا على أنفسهم بأنّهم أُناسٌ أشقياء وأنّ أعينَهم لن ترى وجهَ السعادة أبدًا.

لكن ليعلم كلّ مؤمن ذو عقيدة بأنّ الإمام الباقر عليه السلام يقول: «**مَن كَسِلَ عن أمرِ دنياه فهُوَ عن أمرِ آخرتِه أكسَل**»[1]. فإنسان كهذا لا يستمتع حتّى بعباداته.

١- الكافي، ج٥، ص٨٥.

أزالَ اللهُ عنّا الحزن والكآبة، ووهبَنا النشاط الدائم والحيويّة الأصيلة المتواصلة، وأرانا الطريقة إلى اكتساب القوّة والبهجة في الروح وإزالة الكسل والفتور في القلب. وجعَلَنا ممّن يملأ حياة الآخرين بسرور عميق حقيقيّ، ووَفَّقَنا إلى أن نعبُدَه عبادةً عن شُكر، تنبثق من حياة ملؤُها السعادة والبهجة.

الصلاة تمنح أهل البيت السعادة

أودّ هنا أن أستهلّ بحثي حول الصلاة بمقدّمة عن الحيويّة والابتهاج. ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**جُعِلَ قُرَّةُ عَيني في الصّلاة**»[1]؛ أي: كلّما أقبلتُ على الصلاة شعرتُ بالسعادة من صميم قلبي. بمعنى أنّ الصلاة حبيبة قلبيّ، وهي السبب في بهجة روحي وانشراح صدري[2]. بالطبع تستطيع بلوغ هذا المقصد عبر طريق آخر غير ضرورة الحيويّة ولزوم العيش البهيج.

١-.المصدر نفسه، ج٥، ص٣٢١.

٢- جاء في الخبر «**أنّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله كان إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزعَ إلى الصلاة**» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٠، ص٢٠٧).

رُوي عـن الإمام جعفـر الصادق عليه السـلام: «**ما يمنعُ أحدَكُـم إذا دخـلَ عليـه غَـمٌّ من غُمـوم الدنيـا أن يتوضّأ ثمّ يدخُـلَ مَسـجِدَهُ ويركـعَ رَكعتَيـن فيدعـوَ اللهَ فيهمـا، أَمـا سـمعتَ الله يقـول: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[1]**»[2].

الصلاة محور العبادات جميعًا

إننا إذا تحدّثنا ـ في البداية ـ عن أهمّيّة العبادة، ثمّ انتقلنا إلى الصلاة باعتبارها أهمّ أنواع العبادات، نكون قد أطَلنا على أنفسنا المسافة. فجميعنا يعلم أنّ الصلاة هي محور العبادات كلها، بل والطاعات أيضًا، حتّى قال أئمتنا عليهم السلام: «**أوّلُ ما يُحاسَبُ به العبدُ على الصّلاة فإذا قُبلَت قُبلَ منه سائرُ عمَلِه وإذا رُدَّت عليه رُدَّ عليه سائرُ عملِه**»[3]. إذًا فلنشرع بأهمّيّة الصلاة نفسِها، فإن فعلنا ذلك ستتّضح أهمّيّة أصل العبادة.

١- سورة البقرة، الآية ٤٥.

٢- تفسير العيّاشي، ج١، ص٤٣.

٣- الإمام الصادق عليه السلام، من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٨.

العبادة بمعناها العامّ تشمل جميع أنواع الطاعات، لكنّها بمعناها الخاصّ تدلّ على القيام بذِكرِ الله وفقَ تعاليمَ وشعائرَ معيّنةٍ أمَرَ بها ربّ العالمين. وبطبيعة الحال فإنّ أوّل نموذج للعبادة بمعناها الخاصّ هو «الصلاة». بل إنّ الصلاة ـ في الواقع ـ تحتلّ مكانة الرأس من الجسد بالنسبة إلى سائر العبادات[1].

وردَت في أهمّيّة الصلاة أحاديث كثيرة. فقد رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله مثلًا: «**الصّلاةُ عَمودُ دينِكُم**»[2]. وعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام أنّه قال: «**فإنَّ ربَّكُم رحيمٌ يشكُرُ القليل، إنّ الرّجلَ لَيُصلّي الرّكعتَينِ يُريدُ بِهما وَجهَ اللهِ تعالى فيُدخِلُه اللهُ بِهما الجنّة**»[3]. وعنه عليه السلام أيضًا:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**مَوضِعُ الصَّلاةِ مِنَ الدّينِ كَمَوضِعِ الرّأسِ مِنَ الجَسَدِ**» (نهج الفصاحة، ص٧٧٨).

٢- الكافي، ج٢، ص١٩.

٣- من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٩.

«مَن قَبِلَ اللهُ منهُ صلاةً واحدةً لَم يُعَذِّبه»[1]. فكم هو جميل أن تكون لدينا ركعتان مقبولتان.

وهناك، من ناحية أخرى، روايات كثيرة تذمّ ترك الصلاة. ومن باب المثال، لا الحصر، يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: **«مَن تَرَكَ الصّلاةَ مُتَعمِّدًا فقَدْ بَرِئَ مِن ذِمَّةِ اللهِ وذِمَّةِ رسولِ الله»**[2]. كما يقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: **«اللَّهُمَّ الْعَن مَن تَرَكَ الصّلاةَ مُتَعَمِّدًا»**[3]. وكذا نُقل عن النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله قوله: **«سَلِّموا على اليهودِ والنّصارَى ولا تُسَلِّموا على يهودِ أُمَّتي»**؟ قِيلَ: وَمَن يَهودُ أُمَّتِك؟ قال: **«تُرّاكُ الصّلاة»**[4] أي التاركين للصلاة.

١- الكافي، ج٣، ص٢٦٦.

٢- المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٧؟

٣- مستدرك الوسائل، ج٣، ص٩١.

٤- كشف الخفاء للعجلوني، ج١، ص٤٥٥.

كلّ هذا التأكيد على الصلاة يدلّ على أهمّيتها

كلّ هـذا الغضـب من الله تعالـى ومن رسـوله الكريم صلـى الله عليـه وآلـه ومـن أئمّـة الهـدى عليهم السـلام علـى تـارك الصلاة يدلّ حقًّـا على أنّ بـركات الصلاة لا تُعـدّ ولا تُحصـى، وأنّنـا لا نحصل منها إلاّ علـى القليل.

فلـو لـم يكـن لهـذا الشـيء حقًّـا قيمـةٌ كبيرة لـم يكن الله تعالـى أبدًا ليشـدّد عليـه كلّ هذا التشـديد. إذًا يجب علينـا أن نهتَـمّ بموضوع الصـلاة اهتمامًـا خاصًّا، ونقوم ببحـث ودراسـة هـذا الموضـوع الروتيني والغريـب للغايـة. وليـس مرادنـا هنـا الموعظة، بـل إنّ ثمّـة بضعة رمـوز وأسـرار تحيـط بالصـلاة قلّمـا يتطـرَّق إليهـا الباحثـون، ونحـن نبتغـي طرحهـا علـى طاولـة الحـوار كـي ندرك كم هو سـهل أن نبلـغ عُلا المراتـب المعنويّة بالصـلاة لكنّنا ـ مع شـديد الأسـف ـ قـد حَرَمنا أنفسـنا مـن منافـع هـذه العبـادة الغنيّـة العميقـة الأثر.

كيف نشجّع من لا يصلّي على الصلاة؟

إنّ أهمّ دليل على كون المؤمن على حق أصلًا هو أن يشاهد الآخرون كم هو مستفيدٌ من إيمانه لتنمية إحساسه بالسعادة، وإلى أيّ مدى استطاع دينُه وإيمانُه هذان أن يجعلاه مبتهجًا مُفعمًا بالحياة. فهذه الحيويّة والبهجة هما من أهمّ عوامل اجتذاب الآخرين إلى هذا الإيمان الذي لديك. وإلاّ فسيقول الناس: «لقد كذب دينُكم في زعمِه أنّه قادرٌ على تحقيق سعادة الإنسان على كافّة المستويات»، ولهذا فسوف لا يميلون إليه، وهم محقّون ـ من وَجهٍ من الوجوه ـ في عدم ميلهم هذا.

إذا استلذّ المصلّي بصلاته انجذب تارك الصلاة إليها

وكلامنا هنا موجّه إلى أهل الصلاة. فإنْ حسَّن المصلّون صلاتَهم، فسيُشغَف غيرُ المصلّي بالصلاة حُبًّا. فنحن نستطيع أن نُلقي بخطايا جميع تاركي الصلاة في رقبة المصلّين، إذ لو أجادَ المصلّون صلاتَهم، وفازوا منها بما يكفي من اللذّة والنفع

إذًا لَرغِبَ أكثر تاركي الصلاة في الصلاة. وهذه هي طريقة الدعوة إلى الدين[1]. فتبليغ الدين لا يكون في أن يصبح جماعة من الناس أنصافَ مسلمين، ثمّ ـ قبل أن يقوى إسلامُهم، وتتبلور لدينا أُسواتٌ جيّدة ـ نتوجّه إلى بقيّة أهل العالم لنهديهم إلى الإسلام!

بل إنّ الدعوة إلى الدين تكون في أن يسير أولئك الذين التحقوا بِرَكب الدين حديثًا في جادّة الدين حتّى نهايتها، ويصبحون أمثلةً وأُسواتٍ من أجل اجتذاب الآخرين إليهم، ويكونون شهداء[2] على حقّانيّة الدين. وإنّ طريقة تحويل تاركي الصلاة إلى مصلّين هي أن يصل مجموعة من الناس إلى آخر طريق الصلاة.

١- قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**كونوا دُعاةً للنّاسِ بِغَيرِ ألسِنَتِكُم لِيَرَوا منكُمُ الوَرَعَ والاجتِهادَ والصَّلاة والخَيرَ فَإنَّ ذلِكَ دَاعِيَةٌ**» (الكافي، ج٢، ص٧٨).

٢- ﴿.. وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ..﴾ (سورة الحجّ، الآية ٧٨).

أي إذا أحببنا أن نبذل جهدًا ما لجعل غير المصلّين يصلّون فعلينا أوّلًا أن نُولي صلاتَنا نحنُ مزيدًا من العناية والاهتمام، ونعمل على إنمائها وإكمالها.

الصلاة مُربٍّ يوصل الإنسان إلى الله

لو سُئِلَ أيٌّ منّا عمّا إذا كان بحاجة إلى أستاذ ومربٍّ في الأخلاق فلا شكّ أنّ رَدّه سيكون: «بالتأكيد، بل إنّ هذا لَجميل جدًّا»!

ولا بأس هنا أن نضرب بضعة أمثلة على الدور البارز الذي يقوم به المربّي والمرشد في حياة الإنسان[١]:

المثال الأول على توجيه المربّي الماهر

كان هنالك مهندس يعمل في بناء العقارات وبيعها. وكان قد بنى مئة عقار، غير أنّ كثرةَ الديون أثقلَت كاهِلَه، فتدَهور وضعُه المادّي، واشتكى عليه

١- قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «هَلَكَ مَن لَيسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرشِدُه» (كشف الغمة، ج٢، ص١١٣).

دائنوه واستصدروا من المحكمة حكمًا باستدعائه. فقصد منزلَ أحد كبار العرفاء وقَصّ عليه قصّتَه وقال له: «أنا لم أعد قادرًا على الذهاب إلى منزلي خشية ملاحقة الدائنين. إنّني أتخفّى كي لا يعثُر علَيّ أحد».

فتأمّل العارف الكبير قليلًا وقال له: «اذهب وأَرْضِ أُختَك»!

ـ قال: «إنّها راضية عنّي».

ـ «كلا، ليسَت راضية».

ففكّر المهندس قليلًا ثمّ قال: «نعم، هذا صحيح، فعندما وافى والدي الأَجَل حصلنا منه على بعض الإرث، وكانت حصّة أختي ألفًا وخمسمائة تومان. وقد تذكّرتُ للتَوّ أنّني لم أُعطِها حقّها من الميراث».

قال هذا ونهض من فوره، وخرج. وبعد فترة وجيزة، عاد المهندس إلى العارف فقال له: «لقد طيَّبتُ خاطِرَ أختي بخمسة آلاف تومان».

فأطـرَقَ العـارف لحظـةً وقـال بعـد تأمّـل قصيـر: «ما زالـت أختـك غيـر راضية عنـك. هـل لأُختِـك منزل»؟

ـ «لا، إنّها مُستأجِرَة».

ـ «اذهـب وسـجّل باسـمها أفضـل بيـت مـن التـي شـيّدتَها واهـدِه لهـا».

ـ «سـيّدي، لكن لي شريك في العمل. كيف أفعل ذلك»؟

ـ «لا يبـدو لـي غيـرَ مـا قُلتُـه لـك، فأختُـك مـا زالت غيـر راضيـة عنك».

وفـي النهايـة، قـام المهنـدس بتسـجيل أحـد بيوتـه باسـم أُختِـه ونقَـل إليـه أثاثَهـا، وعـاد إلـى الرجـل العـارف. فقـال لـه الأخيـر: «لقـد سُـوِّيَ الأمـر الآن».

وفي اليوم التالي، تمكّن المهندس من بيع ثلاثة من بيوته والخلاص من المأزق الذي كان واقعًا فيه[1].

١- كيمياء المحبّة، لمحمّد الري شهري.

فكـم هـو جميـل أن يكـون للإنسـان مُـرَبٍّ يشـخّص أمراضَـه ويقـول لـه: «عليـك بصُنع كـذا وكذا كـي تُحَلَّ مشكلتُك».

المثال الثاني على توجيه المربّي الماهر

يـروي أحـد تلامـذة هـذا العـارف الكبيـر: تصـرّفَ ولـدي الصغيـر فـي المنـزل تصرّفًـا جعـلَ أُمَّـه تضربـه ضربًـا شـديدًا كاد ينقطع نَفَسُـه بسـببه. فأُصيبَت زوجتي بعـد فتـرة وجيـزة بالحُمّـى، واشـتدّت عليهـا. فذهبنـا إلـى الطبيـب، وأنفقنـا علـى علاجهـا مـالًا كثيـرًا، فلـم تـزُل الحمّـى، لا بـل ازدادت أكثـر. فراجعنـا الطبيـب مـرّة أخـرى، وصرفنـا علـى علاجهـا هـذه المـرّة أيضًـا مبلغًـا ضخمًـا مـن المـال قـد أثقـل كاهلي فـي ظروفي المعيشـيّة الصعبـة آنـذاك.

وذات ليلـة، أركَبـتُ الشـيخ (هـذا العـارف الكبيـر) فـي سـيّارتي لأُوصلـه إلـى مـكان مـا. وكانـت امرأتـي فـي السـيّارة أيضًـا. ولـدى ركـوب الشـيخ قلـتُ لـه

مشيرًا إلى زوجتي: «هذه أمّ أولادي. لقد أصابتها الحمّى. وقد ذهبتُ بها إلى الطبيب، لكن من دون جدوى».

فتأمّل الشيخ لحظةً وقال مخاطبًا زوجتي: «لا يُضرب الطفل بهذا الشكل! استغفري الله، واجبُري خاطر ولدك واشتري له شيئًا، وستتحسّنين».

ففَعَلنا ما أوصانا به الشيخ، وتماثلَت زوجتي إلى الشفاء[1].

كم هو حسَن أن يكون للمرء مربٍّ. فالمربّي قد يرشد المرء إلى الطريق السليم، بل وقد يساعده أيضًا على حلّ مشكلته أحيانًا. ولا بّد أنّك سمعتَ قصصًا كثيرة عن الراغبين في سلوك الطريق إلى الله، وكيف أنّهم إذا وجدوا أستاذًا حاذقًا أخذ الأخير بأيديهم في مختلف مراحل الطريق وأعانهم على

١- كيمياء المحبّة، لمحمّد الري شهري.

تخطّي ما يواجهونه فيه من عقبات. وإنّك لَتَجد في مذكّرات العلاّمة الطباطبائيّ وآية الله العظمى الشيخ بهجت رضوان الله عليه عن أستاذهم آية الله السيّد عليّ القاضي قدّس سرّه، أو مذكّرات الذين كانوا يتردّدون على آية الله السيد بهاء الديني رضوان الله عليه الشيء الكثير.

ولعلّك أنت أيضًا تتمنّى أن يكون لك أستاذ، وتسأل الله: «إلهي، دُلَّني على مُرَبٍّ ماهر يساعدني على الوصول إليك». فهل توافق أن أعرّفك على أستاذ من هذا النوع؟ إن كنت موافقًا، فسأخبرك عن أحدهم على جناح السرعة؛ إنّه «الصلاة»!

الصلاة أفضل مُرَبٍّ

إن لدينا جميعًا مرشدًا يُدعى «الصلاة»، فهي المربّي الذي يوصل صاحبه إلى الله تعالى. فالصلاة حيّة، ولها شعور، وهي متحرّكة، ونَشِطة، وبصيرة، وعالِمة. وهي لا تشبه أيّ عادة شخصيّة أو شعيرة

عموميّـة. ومـا هـي بفعاليّة ميتـة لا روح فيهـا وغير ذات جـدوىً لنـا. فـإنّ الصـلاة الخاصـة بـكلّ إنسـان تفعـل لـه ما يتناسـب مـع شـخصِه. فإن كنـتُ أهوى الرئاسـة، فسـتبدّد صلاتـي هـذا الهـوى. وإذا كنـتُ أحـبّ المال، فسـتُخرِج هـذا الحـبّ مـن قلبـي. وإن كنـتُ ميّـالًا إلى الشـهوة، فسـتنتزع هـذا الميل مـن نفسـي. وإذا اتّصفتُ بالتكبّـر، عملَـت علـى تطهيـري مـن هـذه الرذيلـة. وإن أنـا افتقـرتُ إلـى محبّـة الله، قامـت بغـرس هـذه المحبـة فـي كيانـي. فصلاة كلّ شـخص تعلَم مـا تصنعه معـه كـي تُصلِحَه.

ـ «إذًا، هـل يعنـي هـذا أننـي لـو تعاملـتُ مـع الصلاة تعامـلًا حسـنًا فإنهـا سـوف تُصلحني»؟

ـ «نعـم».

ـ «وسـوف لا أعـود، حينذاك، بحاجة إلى أسـتاذ؟ إذًا فما سـرّ قولهم:

قَطعُ هذا الواد فيهِ خَطَرٌ مِن دونِ «خِضْرٍ» فهو قَفرٌ، ظُلماتٌ، لا تَسِر فيه وحيدًا[1]»؟

- «إذا كان المربي ضروريًا لك فإنّ الله سيبعث لك أحدهم وستصادفُه على قارعة الطريق».

المؤهّلات الذاتية للتأثر بالمربّي

يظنّ البعض أنّ باستطاعة المربّي أن يخلق للمرء الحسنات ويمحو عنه السيّئات، لكنّ الأمر ليس هكذا. ولا تخطئ في تصوّرك إذا سمعتَ قصص الأولياء وأنّ الإمام المعصوم عليه السلام أو أحد أولياء الله - مثل آية الله القاضي أو آية الله بهاء الديني قدّس سرّهما - قد أخذ - بشكل خاصّ - بِيَد شخص ما وأعانه على تخطّي عقبَة معنويّة في مسير سلوكه نحو الله. أقول: لا تخطئ في تصوّرك فتظنّ أنّه سيفعل نفس الشيء مع كل مَن يطرُق بابَه. فلا بدّ أنّ الأرضيّة في ذلك الشخص كانت مهيّأة، وأنّ وليّ الله قد أدرَك أنّه لائقٌ لتلقّي مثل هذه

١- ترجمة شعريّة لبيت شعر بالفارسيّة يقول: «طي اين مرحله بي همري خضر مكن. ظلمات است بترس از خطر كمراهي».

المساعدة الخاصّة. فمثلًا بالنسبة إلى قصّة المهندس الذي ذهب إلى ذلك العارف وحلّ الأخير مشكلتَه، فقد كان ذلك من التقديرات الإلهيّة التي تتناسب مع حسنات هذا الشخص. وإلاّ فلو لم أكن لائقًا لأستلم هذه الوصفة الخاصّة، فإنها سوف لا تنفعني حتّى وإن كنتُ جارًا لذلك العارف الكبير.

فعندما ذهب «عُنوانُ البصريّ» ـ مثلًا ـ إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام وطلب منه أن يتتلمذ عنده ردّ عليه الإمام عليه السلام قائلًا: «**اذهب عنّي، فليس لديّ وقت للحديث معك**»[1]! في حين أنّ شخصًا آخر كان جالسًا ذات يوم عند الإمام عليه

١- عن عُنوانَ البصريّ قال: كُنتُ أختَلِفُ إلى مالِكِ بنِ أنَسٍ سنينَ فلمّا حَضَرَ جَعفَرٌ الصادقُ عليه السلام المدينةَ اختَلَفتُ إليه وأحبَبتُ أن آخُذَ عنهُ كما أخَذتُ من مالك، فقالَ لي يومًا: «إنّي رجُلٌ مطلوبٌ ومع ذلك لي أورَادٌ في كُلِّ ساعَةٍ من آناءِ اللّيلِ والنَّهارِ فلا تَشغَلني عن وِردي، فَخُذ عن مالِك» (مشكاة الأنوار، ص٣٢٥).

السلام وكان الإمام يتحدّث إليه، فإذا به ـ الإمام عليه السلام ـ يخبره بأنه سيموت قريبًا دون أن يسأله الرجلُ شيئًا[1].

فلا بدّ أن يخلق الإنسان المؤهّلات في داخله، فإذا نشأت هذه المؤهلات لدى الإنسان فسيهيّئ الله عزّ وجلّ له أستاذًا إذا لزم الأمر.

من المهم أن نعمل بما نعلم

للشروع في سلوك هذا الطريق تكفينا تلك المعلومات العامّة التي يعرفها كلّ واحد منّا. فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**إنَّكُم إلى العَمَلِ بِما عَلِمتُم أحوَجُ منكُم إلى تَعَلُّمِ ما لَم تكُونُوا تَعلَمُون**»[2]. أي إنّنا أكثر حاجة إلى

١- في إشارة إلى قصّة شُعَيب صاحِبِ الإمامِ الصادق عليه السلام الذي أخبرَه أنّ موتَه قريب: «يا شُعَيبُ، ما أحسَنَ بالرَّجُلِ يَموتُ وهوَ لنا وَليٌّ، ويُوالي وَليَّنا، ويُعادي عَدُوَّنا»... فرَجَعَ شُعَيبُ بنُ ميثَم، فما لَبِثَ إلا شهرًا حتّى مات. (دلائل الإمامة، ص٢٥٦).

٢- غرر الحكم، ص٢٦٨.

أن نعمل بالمعلومات التي نعرِفُها من أن نتعلّم مسائل جديدة.

ولطالما توجّه الناس إلى آية الله العظمى الشيخ بهجت رضوان الله عليه يسألونه: «ماذا نصنع كي نبلغ العرفان وننال مقام القُرب من الله»؟ وكان جوابه: «إذا عمِلتُم بما تعلَمون، ولم تدوسوا معلوماتِكم تحت أرجلكم، فهذا منتهى العرفان»[1]. كما أنّه قدّس سرّه عندما سأله أحدهم: «هل لا بد من المربّي من أجل السير إلى الله؟ وإذا لم يتوفَّر المربّي فما العمَل»؟ فإنه كتب له: «باسمه تعالى. مُرَبّيكَ هو عِلمُك. اعمَل بما تَعلَم، يكفيكَ ما لا تَعلَم»[2]. أو قوله رضوان الله عليه في موضع آخر: «لو عَلِمنا أنّ إصلاحَ شؤونِ الإنسانِ يكون بإصلاحِ عبادتِه، التي على رأسها الصلاة، وهو ما يتحقّق بالخضوع والخشوع اللذين

١- الصُحُف السَّماوِيّة؛ منكم السؤال ومن آية الله بهجت الجواب (ورقهاي آسماني؛ پرسشهاي شما و پاسخهاي آيت الله بهجت)، ص٨٢ (بالفارسية).

٢- في طريق المحبوب (به سوى محبوب)، ص٧٣ (بالفارسيّة).

يحصـلان بالكَـفّ عـن اللغـو، لانتهى الأمـر»[1].

الوصول إلى الله يكون بهذه الصلاة تحديدًا

بحسـب تصوّرك أيّ طريق سـلك عظماؤنـا وعرفاؤنا حتـى وصلـوا إلـى مـا وصلـوا إليـه؟ إنّهـا هـذه الصلاة تحديـدًا! فالسـير إلى الله ليـس خاصًا بالعلمـاء والعرفاء أو حِكـرًا عليهـم. والسـلوك إلـى الله سـبحانه ليـس منحصـرًا بأحـدٍ دون غيـره. نعم، قـد يكون الـكلام عن الله مـن اختصـاصِ مجموعـة مـن النـاس، وقـد تكـون الكثيـر من العلـوم الدينيّة مـن اختصاص أُنـاسٍ مُعَيَّنين، أمّـا السـير نحـو الله فليـس بحاجـة إلـى تَخَصُّص.

والصـلاة هـي بحـدّ ذاتهـا ولوحدهـا أسـتاذٌ ومـربٍّ للمـرء. فلـو أنّـكَ كلّمـا أَرَدتَ أن تنهض من سـجّادتك بعـد الانتهـاء مـن الصـلاة وتذهـب مسـرعًا لإنجـاز أعمالـك لـو قلـتَ لنفسـك: «دعنـي أقـوم بتعقيبـات الصـلاة أولًا»، ثـمّ تريَّثـتَ قليـلًا، وجلسـتَ لتـلاوةِ

١- صفحة من سجلّ الشمس (بركي از دفتر آفتاب)، ص ١٣٩ (بالفارسيّة).

التعقيبات، فسيمحو عنكَ هذا العمل بالذات واحدةً من رذائلِ نفسِك.

بعض آثار الصلاة الجيّدة

لا يجعلُ الله تعالى عملًا عباديًا عمودًا لخيمة الدين من دون سبب[1]. فإذا جعل الله الصلاةَ عمودًا للدين فهذا يعني أنّ في هذه الصلاة أسرارًا جَمّة. فإذا عملنا على إصلاح صلاتنا، فسوف لا نعود بحاجةٍ إلى شيء آخر، إذ إنّ الصلاة نفسها ستُعَدِّل باقي أمورنا.

وإنّ للصلاة آثارًا وبركاتٍ كثيرة جدًّا. فالصلاة وسيلة خاصّة وإمكانيّة متميّزة وُضعَت في متناول أيدينا لنعالج بها مشاكلنا المعنويّة والمادّية. وهي تتصرّف في روح الإنسان تصرّفاتٍ كثيرة وتترك فيها آثارًا عجيبة. إذ يُحكى أنّ «ابن سينا» كان إذا صَعُبَت

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصَّلاةُ عَمُودُ دِينِكُم» (الكافي، ج٢، ص١٩).

عليهِ مسألةٌ فإنّه يتَوَضّأَ ويقصد المسجدَ الجامعَ، فيصلّي ويدعو اللهَ عزّ وجلّ أن يُسَهّلَها عليهِ ويفتح مُغلَقَها له[1] فإذا بالمسألة تُحَلّ.

نفهم من ذلك أنّ الصلاة تستطيع أن تصنع الكثير لكنّنا ـ مع الأسف ـ لا نستفيد منها بالشكل الصحيح. وسنشير فيما يلي إلى بعض آثار وبركات الصلاة الحَسَنة:

١. تقليل مشاكل الحياة

كلّما صادفتَ في حياتك مشكلة، مادّية أو معنويّة، روحيّة أو جسديّة، فاذهب ـ كخطوة أولى ـ وتَحَرَّ عن صلاتك فلعلّك متهاونٌ بها[2]. بالطبع المؤمن لا مفرّ

١- شذرات الذهب، ج٥، ص١٢٣.

٢- عن سيّدة النساء فاطمة ابنة سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله أنّها سألَت أباها مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله فقالَت: «يا أبَتاه، ما لِمَن تَهاوَنَ بِصَلاتِهِ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساء»؟ قال: «يا فاطِمَة، مَن تَهاوَنَ بِصَلاتِهِ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ ابتَلاهُ اللهُ بِخَمسَ عَشرَةَ خصلَةً، سِتٌّ مِنها في دارِ الدُّنيا... فَأَمّا اللّواتي تُصيبُهُ في دارِ الدُّنيا فالأُولى يَرفَعُ اللهُ البَرَكَةَ مِن عُمُرِهِ، وَيَرفَعُ

تفاقم المشكلات المادية والمعنوية بسبب التهاون بالصلاة

لـه فـي دار الدنيـا مـن بعـض المنغّصـات والصعوبات؛ فهـو قـد يمـرض، وقـد يقـع فـي ورطـة، وقـد يتعـرّض لحـادثِ سَـير. لكنّـك إذا وجـدتَ المشـكلات تتوالـى عليـك بغـزارة، وأنّهـا غـدَت مُضنيـة لا طاقـة لـك على تحمّلهـا، أو أنّهـا لا ينبغـي أن تؤذيـك إلـى هـذا الحـدّ، فلربّمـا تكـون متهاونـًا بصلاتـك غيـر مُبالٍ بهـا. فاعمل علـى تحسـين صلاتـك وستنكشـف كُرَبُك إن شـاء الله.

وهـذه حـال الأمـور المعنويّـة أيضًـا. فالمؤمـن قـد تنازعُـه نفسُـه إلـى المعصيـة، وقـد يوسـوس لـه الشـيطان، وقـد يرتكـب خطـأً مـا. أمّـا إذا لاحظـتَ أنّ خطايـاك تَعمَـل علـى إخراجك مـن دائرة الإيمـان، وأنّ أحوالـك المعنويّـة تتدهوَر ولـم يَعُد لـك ارتباط مع الله تعالـى، فـأوّل مـا عليـك صُنعـه هـو تحسـين صلاتـك.

اللّهُ البَرَكَـةَ مِـن رزقِـهِ، وَيَمحُو اللّهُ عَزَّ جَلَّ سـيمَاءَ الصّالِحيـنَ مِن وَجهِهِ، وَكُلُّ عَمَـلٍ يَعمَلُـهُ لا يُؤجَـرُ عَلَيـهِ، وَلا يَرتَفِـعُ دُعَاؤُهُ إلَى السَّـماءِ، وَالسّادِسَـةُ لَيسَ لَهُ حَـظٌّ فـي دُعاءِ الصّالِحين» (فلاح السـائل، ص٢٢).

فقُل لنفسك: «مِن الواضح أنّني أُصلّي على نحوٍ سيّئ»[1].

ولا بدّ أنّك شاهدت بعضَهم يقول إذا حلَّت به كارثة: «إلهي، ما الذي صنعتُه كي أتجرّع كلّ هذا الشقاء»؟! ولو أحبَبنا صياغة هذا الخطاب بصورة صحيحة، كان علينا القول: «إلهي، هل إنّني أُصلّي بشكل سّيئ كي أُقاسي كلّ هذا العذاب»؟!

٢. ضبطُ روح الإنسان

مقارنة ضبط محرك السيارة مع ضبط الروح

يضطرب نظام الأجهزة الداخليّة لكلّ سيّارة بعد عملها لمدّة من الزمن فلا تعود تعمل بشكل سليم ولهذا تحتاج، بين الحين والآخر، وبشكل دَوريّ، إلى إعادة ضَبط لرفع أدائها. وتتمّ عمليّة الضبط اليوم بمساعدة أجهزة الكترونيّة خاصّة، وإنّ على

١- عَن الصّادق عليه السلام أنّه قال: «الصَّلاةُ حُجزَةُ اللّهِ وَذلِكَ أَنَّها تَحجُزُ المُصَلِّيَ عَنِ المَعاصي ما دامَ في صَلاتِهِ، قالَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾» (التوحيد للصدوق، ص١٦٦).

كلّ صاحب سيّارة الذهاب بها، بين فترة وأخرى، لضبطها بهذه الأجهزة[1].

وإنّ روح الإنسان أشدّ هشاشةً، وأعظم تعقيدًا، وأكثر عرضةً للضرر من محرّك السيّارة. فالمحرّك مصنوع من الفولاذ، أمّا روح ابن آدم فهي أكثر رِقّةً وحساسيّةً. وإنّ الروح يلحقها الضرر والأذى في مُعتَرَك الحياة اليوميّة، فتختلّ ويضطرب نظامُها، والصلاة هي الجهاز الذي يضبطها. فإنّه يتعيّن على المرء أن يضبط روحَه خمس مرّات في اليوم. وما إن يختلّ نظام روح الإنسان، فإنّ عليه أن يُسرعَ إلى ضبطها بالصلاة.

١- عن النّبيّ صلى الله عليه وآله قال: «مَثَلُ الصَّلاةِ وَأَعمالِ بَني آدَمَ كَرَجُلٍ أَتَى مَرَاغَةً [مكان تَتَمَرَّغُ فيه الدابّة] فَأَثارَ عَلَيهِ مِنها حَتَّى امتَلأَ تُرَابًا وَدَنَسًا ثُمَّ عَمَدَ إِلَى غَديرِ ماءٍ طَيِّبٍ فَاغتَسَلَ بِهِ فَيَذهَبُ عَنهُ التُّرابُ وَالدَّنَسُ، كَذَلِكَ الصَّلَواتُ الخَمسُ تَغسِلُ عَنِ العَبدِ الذُّنُوبَ إِذَا صَلَّى للهِ مِن قَلبِهِ» (مستدرك الوسائل، ج٣ن ص٩١).

لعلّ معدّل الصلاة في دَمِك منخفض!

إذا لاحظت أنّ ذاكرتك أخذت تضعف، أو أنّك بدأت تعاني من مشكلات من قبيل الكآبة وعصبيّة المزاج وما شاكل من الأمراض النفسيّة ففتّش، قبل كلّ شيء، في صلاتك وانظر ما هي مشكلتها. فإن لم يعمل ذهنك كما ينبغي فعليك أن تحدس بأنّ سبب ذلك قد يكون الصلاة؛ فلعلّك تعاني - إذا صحّ التعبير - من انخفاض في نسبة الصلاة في الدم، وأنّك إذا حَقَنْتَ روحَكَ ببضعِ وحداتٍ من الصلاة، فمن المحتمل جدًّا أن تنعم بالاتّزان والسكينة من جديد[1].

٣. إصلاح أمور الدنيا

الصلاة ليست لتشييد آخرة الإنسان فحسب، بل هي تعمل على إعمار دنياه وإصلاح أمورها أيضًا.

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما مِن عَبدٍ يَأتي الصَّلاةَ بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ إلاّ ضَمِنَ اللهُ لَهُ الرَّوحَ وَالرّاحَةَ» (مستدرك الوسائل، ج٣ن ص٩١).

فمن الخطأ أن نقول: «لا تُقطَف ثمرة الصلاة إلاّ في الآخرة»[1].

الصلاة تمتّع الإنسان في الحياة الدنيا

فلو كان من المقرَّر أن يزاول المرءُ العبادةَ من أجل آخرته أفلا يتحتّم عليه، قبل ذلك، أن يكون إنسانًا عاديًّا متّزنًا كي يتمكّن من العبادة؟! فإذا رغب الإنسان في أن يمارس العبادة بحَسَب أُصولِها ليصل إلى الله فمن الواجب عليه، أوّلًا، أن يعيش حياته بحَسَب أُصولِها، وإذا أحبّ أن يعيش مثل هذه الحياة فعليه، قبل كلّ شيء، أن يصلّي.

إذًا فلتُصَلِّ لكي تستمتع بحياتك ـ مع كلّ ما يخالطها من آلام ـ ولكي تشعر بالرضا، وحينذاك

١- سُئِلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله عن الصَّلاةِ فقال: «الصَّلاةُ مِن شَرائعِ الدّينِ، وَفيها مَرضاةُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ، وَهِيَ مِنهاجُ الأَنبِياءِ، وَلِلمُصَلّي حُبُّ المَلائِكَةِ، وَهُدىً وَإيمانٌ، وَنورُ المَعرِفَةِ، وَبَرَكَةٌ في الرِّزقِ، وَرَاحَةٌ لِلبَدَنِ، وَكَراهَةٌ لِلشَّيطانِ، وَسِلاحٌ عَلَى الكافِرِ، وَإجابَةٌ لِلدُّعاءِ، وَقَبولٌ لِلأَعمالِ، وَزادٌ لِلمُؤمِنِ مِنَ الدُّنيا إلَى الآخِرَةِ، وَشَفيعٌ بَينَهُ وَبَينَ مَلَكِ المَوتِ، وَأُنسٌ في قَبرِهِ، وَفِراشٌ تَحتَ جَنبِهِ» (الخصال، ج٢، ص٥٢٢).

فإنك ستُصادِق هذا الإله الذي أهداكَ هذه الحياة الطيّبة. فما لم يتمتّع المرء بحياته فسوف لن يصبح صديقًا لله عزّ وجلّ. وإنّ الإنسان اليائس والسيّئ الخُلُق لا يسير نحو الله، لأنّه يكون في شِجارٍ دائم وخِناقٍ مستمرّ مع نفسه ومع الآخرين.

إذًا على ابن آدم ـ بادئ الأمر، وكما أسلفنا ـ أن يعيش حياته بِأُصولها، ومن أجل أن يعيش حياتَه بأُصولِها عليه أن يؤدّي صلاتَه بأصولها.

٤. مفتاح بلوغ المقامات المعنويّة

كان المرحوم آية الله القاضي أستاذ آية الله الشيخ بهجت قدّس سرّه، وقد وصفه الإمام الخمينيّ قدّس سرّه عليه «بجبل العرفان». ولطالما كان آية الله بهجت قدّس سرّه ينقل في مواعظه هذه العبارة عن أستاذه السيّد القاضي: «إذا التزم رجلٌ بأداء الفرائض في أوّل أوقاتها ولم يَصِلْ إلى المقامات العالية

فليَلعَنّـي»[1]! أو يقـول فـي مواطـن أخـرى: «.. فليبصُق في وجهـي»[2]!

العالِم الذي سأل الشيخ بهجت كيف يصبح آدميًا؟

يـروي أحـد العلمـاء فيقـول: «تشـرّفتُ قبـل سـنين بزيـارة آيـة الله العظمـى الشـيخ بهجـت قـدّس سـرّه فقلـت لـه: دُلَّنـي علـى طريقـة أكـون بهـا آدَمِيًّـا».

فقال: «صَلِّ صلاتَك أوّل وقتِها».

فقلـتُ في ذات نفسـي: «الشـيخ لَـم يُلقِ لي بـالًا. فأنا ـ أساسًـا ـ أُصلّي فـي أوّل الوقت».

ومرَّت سـنة علـى القصّـة. واتّفق أن اسـتُضِفتُ إلـى مكانٍ كان مـن المقـرَّر أن ألتقـي فيـه بالشـيخ بهجـت مـرّة أخـرى. وحدّثـتُ نفسـي وأنا في الطريق قائلًا: «سـوف أسـأل الشـيخ هـذه المـرّة أيضًا لأرى ما الطريـق الذي سـيدلني عليه والذي يوصـل إلـى كل مقـام، طبعًـا إن كان يرغب فـي ذلك»؟

١- راجع كتاب: عطش، ص٣٠١ (بالفارسيّة).

٢- راجع كتاب: فريادكر توحيد (منادي التوحيد)، ص١١٩ (بالفارسيّة).

ودخلتُ عليه وكنتُ بصحبة عدد من الأشخاص. وأثناء حديث سماحته، وقبل أن أتفوّه بكلمة واحدة، وإذا به يقول: «يسألني بعضهم: ماذا أصنع كي أكون آدميًّا وأترقّى؟ فأُجيبه: صلِّ أوّل الوقت. فيذهب، ويعود بعد سنة وهو يحدّث نفسه: لم يُلقِ لي الشيخُ بالًا! فلأسأله ثانيةً عمّا ينبغي عليّ صُنعُه. إنّه لم يُصغِ لما قلتُ له بالضبط، ولم يعمل به، والآن يريد إعادة السؤال من جديد! عزيزي، الجواب نفس الجواب، وهو دائمًا كما قلتُ»!

يقول هذا العالم: «وعندها لم أقل شيئًا. لقد أصاب الشيخ بهجت، فأنا لم آتِ ببعض الفرائض في وقتها. وشرعتُ منذ ذلك الحين، وأصلحتُ أمري».

وقد بلغ هذا العالِم الكبير، شيئًا فشيئًا، إلى ما كانت تصبو إليه نفسُه، بل وإلى فوق ما كان يتصوّر، من المقامات.

ضرورة الصلاة الجيّدة

ولْنَرَ الآن أيّ صلاةٍ تلك التي توصِلُنا إلى هذه النتائج العظيمة والبركات النَّفيسة؟ وأيُّ صلاةٍ تأخذنا إلى مثل هذا المقام المليء بالحيويّة والسعادة؟

من الواضح أنّه ما كلّ صلاة تترك فينا مثل هذه الآثار. فالصلاة التي يأتي بها صاحبها لأداء ما عليه من تكليف لا غير، أو يصلّيها بتكاسُل ومَلل لا تُثمر عن مثل هذه الأشياء. كما أنّ الصلاة الفاترة تجعل المؤمن يؤنّب ضميره ويشعر بشكل متواصل أنّه لم يُؤدِّ ما في رقبته من دَينٍ لربّه. بل إنّ المرء لَيزداد ثقلُ دَينِه بعد كلّ صلاة يصلّيها عن ضَجَر وسَأَم. وإنّ الصلاة التي يصليها الشخص بتثاقُل سوف لا تعالج الخمول والفتور الذي يصيب روحَه. إذاً فنحن بحاجة إلى صلاة حَسَنة.

هذه، بالطبع، بعضٌ من عشرات الأدلّة على ضرورة الصلاة الجيّدة.

لا تقُل يا صديقي: «إذا كان دافع المصلّي من أداء الصلاة الجيّدة هو أن ينال فائدةً فيها أنانيّة، كأن يعيشَ - مثلًا - عيشًا هنيئًا، فسوف لا يكون دافعه هذا نابعًا من إخلاص وعرفان». والسبب هو أنّ باستطاعتك أن تنظر نظرةً غير أنانيّة إلى طبيعة الصلاة، الطبيعة التي تولّد النشاط وتجلب السعادة، وأن تتّخذها معيارًا من معايير الخلوص في العبادة. فإذا كانت تداعب قلبَك الصافي رغبةٌ مُلِحّة إلى أجواء العرفان والخلوص، فلا بد أنّك تعلم أنّ العبادة بإخلاص وعرفان تسكُب على العابد أكبر قدر من الحيويّة وتعطيه أعلى مستوىً من النشاط. إذًا فاجعَل صلاتَك جميلة، لا لأجل العيش البهيج، بل لأنّ العبادة لا تكون قَيِّمة ولا تُثمر عن التقرُّب إلاّ إذا تم أداؤها

بجودة، وهي بلا شكّ ستكون مصحوبة أيضًا بالآثار المارّةِ الذكر.

ما السبيل إلى صلاةٍ حسَنة؟

ومن أجل الدخول في البحث يتعيّن علينا الوصول، عبر أيّ طريق ومن أيّ منفذ، إلى هذا التساؤل: «كيف نرتقي بصلاتنا لتكون منبعًا لحياتنا، ومبعثًا لحياة قلوبنا وحيويّتنا»؟ ولتكون صلاةً تقلّل من تأنيب ضمائرنا أمام ربّ الأكوان، وتجعلُنا نستثمر أفضل الفُرَص من أجل الرُّقِيّ المعنويّ، وتهيّئ لنا المناخ للنهوض بمستوى أعمالنا الباقية، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاعلَم أَنَّ كُلَّ شَيءٍ مِن عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلاتِكَ فَمَن ضَيَّعَ الصَّلاةَ فَإِنَّهُ لِغَيرِهَا أَضيَع**»[1]، أي إنّ سائر أعمالك إنّما تُقيَّم وتوزَن بمقدار قبول صلاتِك.

١- أمالي الشيخ المفيد، ص٢٦٧.

ما هي
الصلاة
الجيدة؟

الفصل الثاني

فلنصحّح نظرتنا إلى الصلاة

كيف نؤدّي الصلاة بصورة جيّدة؟ وماذا عسانا نفعل إذا أردنا أن نهتمّ بصلاتنا، ونصلّيها بإقبال، وعلى نحو أفضل؟ الجواب: «علينا أن نصحّح نظرتنا إلى الصلاة أوّلًا» ومن ثمّ نعمل على تحسينها.

التصوُّر الشائع عن الصلاة الحَسَنة هو أنّها تلك التي تُصلّى عن عشق، والتي سمعنا وصفَها في أحوال وسِيَر أولياء الله تعالى. إذ يظنّ الكثير من الناس أنّ الصلاةَ الفُضلَى هي تلك التي يؤدّيها

المرءُ وهو يذرف الدموع، وترتعدُ فرائصُه من خشية الله من أوّلها إلى آخرها. فما أن يُقال: «صلاةٌ حَسَنة» حتى يتبادر إلى أذهانِ مُعظم الناس أنّها الصلاة التي يخاطِب فيها المصلّي اللهَ مباشرةً.. ويراه.. ويسلّم عليه وعلى أوليائه.. ويسمع ردَّهُم، والحال أنّه ليس هذا هو المراد من الصلاة الجيّدة، والأمور المذكورة ليست معيارًا لها.

صلاتُنا الجيدة تختلف عن صلاة أولياء الله

في كثير من الأحيان يقول لنا البعض إذا أراد موعظتَنا: «أيُّ صلاةٍ هذه التي تصلّيها يا هذا؟! أتدري كيف كان أمير المؤمنين عليه السلام ينخطف لونُه إذا صلّى خشيةً من ربّه، وأيّ حالٍ كانت تنتابُه[1]؟!». وأمثال هذا الترويج للصلاة قد يبعث أحيانًا اليأسَ

1- رُوي عن جعفر بن محمّد عليهما السلام في صلاة عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «..وإن كان لَيقومُ إلى الصلاة فإذا قال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ تغيّرَ لونُه حتّى يُعرفُ ذلك في وجهِه» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٤، ص١١٠).

في أنفُسنا فنقول: «سوف لا نكون يومًا هكذا على الإطلاق». فبمجرّد أن يقال: «صلاةٌ جيّدة» حتّى نتخيّل صلاةَ أولياء الله تعالى، في حين أن صلاة الأولياء هي الذُروة، ومن أجل أن نصل نحن إلى هذه الذروة علينا ـ بدايةً ـ أن نصل إلى مقام الصلاة الحسنة.

صحيح أنّ أهل البيت عليهم السلام كانوا إذا قاموا إلى الصلاة اختلجَ كلّ عضوٍ في بدنهم من شدّة خوفهم من حضرةِ الحق عزّ وجلّ، وتغيَّر لونُهم من فرط اشتياقهم إليه[1]، لكنّنا لا يسعُنا ـ ونحن على حالنا هذه ـ أن نصلّي كتلك الصلاة، بل قد لا نوفَّق حتّى آخر أعمارنا إلى مثلها. إذًا فالصلاة الجيّدة الخاصّة بأمثالنا تختلف عن تلك.

١- عن الإمام الباقر في صلاة أبيه السجّاد عليهما السلام: «أنّهُ كانَ إذا قامَ إلَى الصَّلاةِ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَأَصابَتهُ رِعدَةٌ وَحالَ أَمرُهُ فَرُبَّمَا سَأَلَهُ عَن حالِهِ مَن لا يَعرِفُ أَمرَهُ في ذَلِكَ فَيَقُولُ: إنّي أُريدُ الوُقوفَ بَينَ يَدَي مَلِكٍ عَظيم» (مناقب آل أبي طالب، ج٤، ص١٥٠).

نحن ما زلنا في المراحل الابتدائيّة من الطريق، ولا تزال صلاة العُشّاق والخائفين بعيدةَ المنال بالنسبة إلينا. فليس من السهل أن يخاف المرءُ ربَّه خمسَ مرّات في اليوم والليلة، بل قد لا نكون ـ طيلة أعمارنا ـ قد أحسسنا الخشية من الله ولو مرّة واحدة. فتذوُّق حلاوة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[1] إنّما هي من خصوصيّات أولياء الله عزّ وجلّ. إذ إنّ الخوف من مقام الربّ لا يشبه خوفَنا من الله بسببٍ من خطايانا. فلا يسعُنا ـ في الوقت الحاضر ـ أن نصلّي عن خشية، وليس بمقدورنا الصلاة عن عشق، فقلوبُنا لا تشتاق إلى الله سبحانه وتعالى كي نقول كما كان يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أَرِحنا يا بلال»[2]؛ أي: «ارفع الأذان يا بلال كي أرتاح.. كي أنتعش»!

١- سورة النازعات، الآية ٤٠.

٢- قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»، وكان يقول: «أَرِحنَا يا بِلال» (بحار الأنوار، ج٧٩، ص١٩٣).

الأذان لا يمثّل لنا هذا الأنين المنبعث عن فورة عشق، ولسنا بقادرين ـ في المرحلة الأولى ـ على أن نصلّي بدافع الحبّ. وما أكثر الذين يجلسون مكتوفي الأيدي بانتظار أن تتحسّن حالُهم ذات يوم، فيصبحون عُشّاقًا لله جلّ وعلا، ومن الذين يجيدون صلاتَهم. ولا أدري من أين أتى هؤلاء بهذا النمط من التديّن؟!

ـ «لكن هل تُعارِضُ يا رجل أن تصلّي صلاةً بدافع العشق إذا ما هِمْتَ بالله وهامَ قلبُك بالحديث إليه»؟

ـ «كلاّ يا هذا، ليس ثمّة مَن يعارض ذلك. فحينذاك سنذوب حبًّا في الله لا محالة، هذا أمر ثابت. لكن ما الذي تنوي فِعْلَه الآن وأنت في هذه الحالة»؟

ـ «لا شيء، أنتظر أن أُصبح مُتَيَّمًا إن شاء الله»!

ـ «لكنّك قد لا تصير مُتَيَّمًا أبدًا، فهذا الذي تصنعُه ليس هو طريق الانخراط في سلك العُشّاق. فطريق

العشق يتطلّب منك أن تَكدَح وتُعاني. قُل لي بالله عليك، أيُّ كدحٍ ومعاناة قاسيتَها كي تتوقّع من ورائها أن تصبح عاشقًا»؟!

لا تقنط إذا نظرتَ إلى صلاة الأولياء

من جهة ثانية لا ينبغي أن ننظر إلى القمّة في طريقة أداء الصلاة نظرةً تبعث فينا خيبة الأمل من صلاتنا، كالذي إذا قيل له: «صلِّ»، قال: «أين أنا من الصلاة؟! فما صلاةٌ إلاّ صلاةَ علِيّ عليه السلام»! فيُعفي نفسه من الصلاة بهذه الذريعة.

بأيّ بساطة يستطيع المرء أن يتخلّى عن المسؤوليّة! إنّه يقول كلمة حقٍّ واحدة، فيستنتج منها أربعَ كلماتٍ باطل. يقول: «نحن لا نستطيع أن نصلّي، فصلاتنا ليست صلاةً أصلًا. الصلاة لم تُجعَل إلاّ لأمير المؤمنين عليه السلام، ولا نحصل منها نحن إلاّ على لقلقَة اللسان، والانحناء، والقيام، والقعود». فإنْ يَئِس المرءُ بسبب هذا الكلام، وضعُفَت عزيمتُه وجِدّيّتُه للصلاة ـ وهو

ما يحصل غالبًا ـ فإنّه كلام شيطانيّ قد أجراهُ إبليسُ الرجيم على لسانِ الإنسان.

كان بعض المجاهدين في زمن حرب الدفاع المقدّس يضطرّون ـ بسبب ظروف العمليّات العسكريّة ـ إلى تقصير صلاتهم وأدائها هرولةً. فاستفتوا آية الله المشكيني[1] عن مدى صحّة صلواتهم، فأخذ ـ رحمَه الله ـ بالبكاء وأجابهم: «أنا على استعداد لاستبدال ركعةٍ من صلاتكم هذه بعبادتي لبِضع سنين»[2]!

وأذكُر مرّةً حينما كنت أتحدّث إلى بعض الإخوان المجاهدين في جبهات القتال (أولئك الذين كانت عبادتُهم عزيزة جدًّا عند الله) أذكر أنّي

١- آية الله المشكيني رحمَه الله كان أحد أساتذة الحوزة العلميّة بقمّ المقدّسة، وإمامًا للجمعة، ومدرّسًا للأخلاق، وكان قد شغل منصب رئاسة مجلس خبراء القيادة منذ تأسيسه وحتّى آخر عمره المبارك.

٢- موقع تبيان الالكتروني، موضوع رقم ١١٣٦٨٨.

بادرتُهم بالسؤال: «يا رفاق، هل حَصَلَ لكم ذات مرّة أن تغيَّر لونكم من خشية الله وأنتم تقفون للصلاة»؟ فكانوا يجيبون: «لا»! لكن هؤلاء أنفسهم كانوا يستشهدون فيما بعد. نفهم من ذلك أنّنا لا ينبغي أن نظن أنّ جودة الصلاة لا تكون إلا في البكاء، وانهمار الدموع، وارتعاد البدن من خشية الله أثناءها.

إنّنا، في بعض الأوقات، ننظر إلى القِمَم في الصلاة، وهم أهل البيت عليهم السلام، وإذا بنا نستسلم لليأس بدلًا من أن نستلهم الحافز لكي نمضي في الطريق قُدُمًا بجِدّ ومثابرة. في حين أنّه يتوجّب علينا أن ننظر أمامنا لكي يتيسّر لنا التقدُّم خطوةً إلى الأمام. فالباب مفتوح نحو أداءِ صلاةٍ جيدة، وما علينا إلاّ أن نبدأ في تحسين صلاتنا. ومن أجل ذلك ينبغي لنا ـ منذ البداية ـ أن نغيّر رؤيتنا تجاه الصلاة، وأن نلغي جميع ما نتخيّله عن الصلاة الحَسَنة وما نتوقّعه منها ونضع في محلّه توقُّعًا

معقـولًا يكـون فـي متناوَلنـا، وهـو أنّ الصـلاة الحسَـنة لا تكـون بالضـرورة مصحوبـة بالدمـوع والآهـات، أو مقترنـة بالحمـاس والشـوق.

الصلاة في البداية ليست مغازلة مع الله

الصـلاة فـي المراحـل الأولـى ليسـت غزلًا مـع الله، وهـي تكـون مصحوبـة بإرهـاق النفـس، لا الشـعور باللـذّة المعنويّـة. فـالله تعالـى يعلم أنّنا لَسـنا ـ فـي بداية الطريـق ـ عُشّـاقه ولا عارفيـن بـه. وهـو على عِلـم بأنّنا ـ وبعـد أربعيـن عامًـا مـن العبـادة ـ سنكتسـب لتوّنـا القـدرة على الإحسـاس بحـلاوة الحديـث إليـه تعالى، وهـو لهـذا السـبب أمَرَنا بمثـل ذلك. فكيـف ـ إذا كانت الحـال كذلـك ـ نظـن أنّ صلاتَنـا لا تكون حسَـنة إلاّ إذا تلذّذنـا بها؟!

أساسًـا قد يكـون من القبيـح أحيانًا أن نحـاول تذوُّق حـلاوةِ الصـلاة والاسـتمتاع بها. وإذا سـألنا أنفسـنا في

بعـض الأوقـات: «مـاذا نعمـل كي نلتـذّ بصلاتنـا؟» فقد لا يكون سـؤالنا هـذا وجيهًا.

يسـأل سائل: «كيف ألتذّ بصلاتي أيّها الشيخ»؟

- «ليـس مـن المقـرّر أن تلتـذّ أنـت بصلاتـك، بـل المطلـوب منـك هـو أن تجيـد صلاتَـك كـي يلتـذَّ بهـا ربُّـك ويفـرح. فـإن فـرح بهـا الله فقـد يصبـح - بإذنـه تعالـى - رفيقَـك، ويحتضنـك، فتنتظـم شـؤونُك جميعًا بالتدريـج، وتحظـى بلـذّةٍ أيضًـا».

فالمـرء فـي بعض الأحيان قد لا يسـعى إلـى الصلاة، بـل إلـى لذّته وإشـباع نزواتـه، ويحلـم بحـلاوة الصلاة طلبًـا لحيـاةٍ ملؤُها الحـلاوة والبهجـة. فيتخيّـل - تارةً - أنّ أداءَ الصـلاة ككارتـون «تـوم وجيـري» مـا إن يجلس إليـه حتّـى يسـكُر، ويُسـحَر، وتغمـره المتعـة، ويظنّهـا - تـارةً أخـرى - فِلمًا سـينمائيًّا.

فلـو شـاء الله لـكان قـادرًا علـى أن يجعـل الصـلاة حلـوةً وممتعـة للنـاس أجمعيـن كـي ينجـذب إليهـا

الجميـع. لكنّـه جـلّ وعـلا، علـى العكـس، قـد جعلها لهـم مصدر إزعـاج، وما من شـكٍّ أنّ تصـرّف الله تعالى هـذا ـ حالُـه حـالُ أفعالـه جميعًـا ـ نابـع مـن حكمتـه.

مثال على التعريف السيّئ بالصلاة

يقـول أحـد الآبـاء: «ولـدي لا يصلّـي. إنّـه يتثاقل من الصـلاة. لقـد بلـغ الثامنـة أو التاسـعة عشـرة ودخـل الجامعـة، لكنّنـي مُسـتاء بسـبب تماهلـه فـي الصـلاة. والحـال أنّنـا لـم نُقصّـر فـي تربيتـه. فتفضّـل وأخبرنـي مـاذا نقـول له»؟

ـ فقلـتُ له: «كيف عرَّفتَ الصلاة لابنك»؟

ـ «عرَّفتُـه بها بطريقةٍ ما على أيّة حال».

ـ «لا.. قُـل لي كيف عرَّفتَه بها على نحو الدقّة»؟

فسـرَدَ بعـض أنمـاط التعريـف الشـائعة بالصـلاة إلى أن قـال: «الصـلاةُ غـزَلٌ مـع الله، ومناجـاةٌ مـع المعبود، وفيهـا يفضـي العبـد بسـرّه إلـى ربّ الأكـوان، ويعرض عليـه حاجته،..الخ».

ومـن المؤكّـد أنّ ابـن هـذا الرجـل عندمـا وقـف للصـلاة، بعـد أن سـمع مـن أبيـه هـذا النـوع مـن التعريـف بهـا، قـال فـي ذات نفسـه: «أيـن المناجـاة، وأيـن الإفضـاء بالسِّـرّ؟ فـإنْ كان لـدَيَّ سِـرّ فهـل كُنـتُ سأكشـفه لربّـي بهـذه الطريقـة»؟ أي إنّ هـذا الشـابّ عندمـا بـدأ يصلّـي لـم يجـد للغـزل أثـرًا ولا للإقبـال المعنـويّ علامـةً، وإذا بـه يقـول لربّـه بعـد حيـن: «ليـس لـي مَيـلٌ إلـى الغَـزَل الآن. إلهـي، سـآتي للمغازلـة فيمـا بعـد، فأنـا الآن منهمـك بعملـي ودراسـتي»!

فقلـتُ لهـذا الأب المحتـرم: «لقـد عرَّفـتَ الصـلاة لولـدك بشـكل خاطـئ. ولـدُك هذا التـزم بالصـلاة فترة مـن الزمـن، لكنـه حيـن لـم يجـد فيهـا لـذّةً أدبَـر عنهـا لاعتقـاده بأنّـه لـم يحصل منهـا علـى نَفع. لـذا هو يرى أنّـه فاشـل فـي صلاته».

دعكَ الآن من الاستمتاع بالصلاة!

ليست الصلاةُ عبادةً ينبغي للمرء أن يؤدّيها في حالة من الروحانيّة، مصحوبةً بالبكاء وسفح الدموع، وبالحُرقة واللّوعة، ولا يلزمه الالتذاذ بها بالضرورة. إذ حتّى لو كان الشخص شديد اللوعة وسريع الدمعة، فسوف لا يجد في نفسه الرغبة في العبادة أبدًا. فأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «إِنَّ لِلقُلوبِ إِقبَالًا وَإِدبارًا»[1]. لذا ترى الإنسان ميّالاً إلى العبادة حينًا، ونافرًا منها حينًا آخر، والحال أنّه لا بدّ من الإتيان بالفرائض على نحوٍ مستمرّ، سواءٌ أكنّا راغبين فيها أم لا.

اللذّة لست شرطًا للصلاة الحَسَنة في أوّل الطريق

من الواضح أنّ العبادة التي يتوجَّب على الإنسان أن يمارسها يوميًّا، بل وخمسَ مرّات في اليوم، لا تكون أبدًا من النوع الذي ينبغي له أداؤه وهو يبكي.

١- نهج البلاغة، الحكمة ٣١٢.

فلـو كان البـكاء لزامًا عليـك كُلّما صلّيتَ لقـال الله لك: «صَـلِّ متّـى مـا وجـدتَ في نفسـك ميـلًا إلـى الصلاة». لكنّـه عـزّ وجـلّ لـم يقـل هـذا. ليس هـذا فحسـب، بل لقـد أوجـب علينـا الصـلاة بطريقـة فيهـا إزعـاج لنـا أيضًـا! إذ إنّنـا نكـون مُكرَهين علـى الصلاة حتّـى حينما تبـدو صعبـة وثقيلـة علينا.

مـن أجـل ذلـك فـإنّ الصـلاة الحَسَـنة والجيّـدة بالنسـبة لأمثالنـا، الذيـن مـا زالوا فـي بدايـة الطريق، لا تعنـي علـى الإطلاق الاسـتمتاعَ بهـا. وهـذا تحديدًا من الأمـور التـي طالمـا يستفسـر عنهـا الشُّـبّان:

استمتاعُك بصلاتِك يعيقُ تكاملَك!

ـ «ماذا أفعل كي ألتذّ بصلاتي»؟

ـ «إذا كُنـتَ تطلـب اللذّة فـي الصـلاة إذًا فمتى تُصبح آدَميًّا»؟!

ـ «مـا هـذا الـكلام؟ ما دخل عـدم الالتـذاذ بموضوع أن يصيـر المـرء آدميًّا»؟

ـ «إذا رغب المرء في أن يصبح إنسانًا صالحًا وجبَت عليه مجاهدة نفسه، وهو ما لا يكون مُمتعًا في بادئ الأمر. كما أنّ العبادة التي أعدّها الله تعالى لك واقترحها عليك ليست من النوع الذي يمكن الاستمتاع به! فعمليّة التكرار الموجودة في الصلاة تُفقدها ـ في العادة ـ لذَّتَها. فلقد شاء الله أن تُصبحَ ـ من خلال مصاعب ومرارات هذا العمل المتكرّر الرتيب ـ أن تصبح آدميًّا، وتنمو وتتكامَل، وترتقي. فلو أردتَ الاستمتاع بصلاتك من أوّل الطريق لما أمكنَك أن ترتقي وتتكامل».

فلا تبدأ الصلاة بعملية إنضاج الإنسان إلاّ حينما لا يأخذ منها أي لذّة، وهي لا تُزيل ما ترسَّبَ على روحه من الأقذار إلاّ إذا سُحِجَت هذه الروح بالسطح الخشن للصلاة.

نعم.. فقد تكون، مثلًا، جالسًا وقد غرقتَ في لعبِك، أو انهمَكتَ في عملك، أو استغرقت في راحتِك وإذا

بالمؤذّن يرفع الأذان فجأةً، ويكون عليك النهوض لإقامة الصلاة. من الطبيعيّ، في مثل هذه الحال، أن تنقبض نفسُك. لكن لا عليك، قُم من فورك واهرَع إلى الصلاة كي تُصبح آدَميًّا. فلتتجرّع أذى الصلاة ولتتحمّل مرارَتها كي تمسي رجُلًا صالحًا.

من العجَب أن يصبح بعضُهم بسرعة صديقًا حميمًا لله فيخاطِبَه: «إلهي، ليست لي رغبة في الصلاة الآن»! لكن قل لي يا هذا.. هل الصلاة لُعبة كُرَة قَدَم كي تلعبَها متى رغبتَ فيها؟! أساسًا هل فكّرتَ مرّةً لماذا يأتي اللهُ كلّ صباح إلى نومكَ الهنيء الرائق فيُبَدِّدَه ويأمرك بالنهوض وقت أذان الصبح لأداء الصلاة؟ الجواب: لأنّه يريد أن يُضايِقَك كي يُنضِجَ روحَك. إذًا عليك بمضايقة نفسك بالصلاة من أجل أن تربّيها.

كيف نشجع الأولاد على الصلاة بشكل صحيح؟

كنتُ ذات مرَّةٍ ألعبُ الكُرة مع ولدي في البيت عندما حان وقت الأذان، فقلتُ له: «طيّب.. لقد أذَّنَ المؤذّن وعلَيَّ الذهاب للصلاة».

ـ «أُف، تعـال نُكمِل لعبنا يا أبي»!

ـ «لا يـا ولـدي، لقـد رُفـع الأذان ويجـب أن أذهـبَ لأُصَلّـي، وسـنكمل اللّعِـب بعـد الصـلاة».

ـ «وهـل يجب أن أصلّي أنا أيضًا»؟!

ـ «لستُ أدري.. إذا أردتَ ذلك فتعال».

ـ «لكن يصعب عليَّ أن أصلّي الآن، فاللعب مُمتع».

ـ «بالمناسـبة، إنّـه يصعـب علَيَّ أنا أيضًـا، وإنّ اللعب مُمتـع لـي أنا كذلك. لكن مـا دام الله يريدنـي أن أُصلّي، فعلَـيّ أن أقول: سـمعًا وطاعة».

ـ «أحَقًّـا إنّ الصلاة تصعُب عليك أنت أيضًا»؟

ـ «أجَل».

ـ «إذًا فلماذا تريد الذهاب للصلاة هذه السـاعة»؟!

ـ «يـا بُنـي، لا يُصبـح المـرءُ آدميًـا إلا إذا قـام بعمـل شـاقّ. وأنـا أريـد أن أُصبـح آدميًّـا».

ـ «إذًا أنا آتٍ للصلاة أيضًا».

وانتهى الأمر. هل رأيت؟ لم يتم في بيتنا توجيه الأمر «قُم للصلاة» لأيما أحد.

عليك أن تدرك بأنّ الله يريد أن يسلبَ منكَ راحتَك بواسطة الصلاة. إذًا فامنح راحتك لربّك وقُل له: أنا راضٍ بك. هل يحب ربك أن يؤذيك؟ دَعهُ يؤذيك. فهل الصلاة صعبة إلى هذا الحد؟! وهل النهوض إلى الصلاة في الوقت المناسب شاقّ إلى هذه الدرجة؟! وهل من الصعب جدًا أن لا تقتطع من وقت الصلاة شيئًا؟ وهل يصعب على الإنسان كثيرًا أن يخصّص للصلاة وقتًا كافيًا؟ لا تقل: «أنا على عجلةٍ من أمري». إلى أين تريد الذهاب، يا رجل؟ اتَّقِ الله!

ـ «أيّها الشيخ، إنّك أحيانًا تُطيل الحديث عن محبّة الله وما إلى ذلك من المواضيع، فما بالك اليوم تتكلّم بلهجة «اتَّق الله» بكلّ هذه الشدّة»؟!

ما هي الصلاة الجيّدة؟

ـ «هـذا لأنّ معظمَنـا ـ نحن البَشَـر ـ هذه هـي طبيعتنا، فمهمـا سـمعنا الأحاديـث عـن حُـبّ الله استأنَسـنا بهـا وصرنـا نتناقلهـا، أمّـا سـلوكُنا فيظلّ هـو هو»!

لماذا نعجز عن إنجاز معظم الأعمال الحَسَنة؟

نسـمع أحيانًا بعـض الشـبّان يقولون: «أنا لا أسـتطيع أن أتجنـب النظـرات الحـرام»، ونسـمع الآخـر يقـول: «أنـا غيـر قـادر على منـع لساني من الحـرام».

أقـول: إنّ عجـز كلّ امـرئٍ عـن القيـام بـأيّ عمـلٍ صالـح يعـود إلـى أنّـه كان بإمكانـه القيـام بعمـل صالـحٍ معيَّـن فترَكَـه، وهـو أن يتوجَّـه للصـلاة فـي وقتهـا.

وإذا أحببنـا أن نُعـرِّف الصـلاة الجيّـدة لأنفسـنا فـإنّ أفضـل تعريـف لهـا، بطبيعـة الحـال، هـو ذلـك الـذي ذكره الله نفسُـه فـي مُحكم كتابـه العزيز: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[1]. وعلـى هذا الأسـاس فإنّ

١- سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

درجة جودة الصلاة تُقاس بمقدار ما تنهى صاحبَها عن الفحشاء والمنكر[1].

قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم: «الشابّ الفلاني الذي يصلّي خلفك ينظر إلى النساء الأجنبيّات ويرتكب فواحش أُخرى» ولعلّ القائل كان يريد من النبيّ صلى الله عليه وآله أن يعظه كي يُقلع عن معاصيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ صلاتَهُ تَنهاهُ يومًا ما**»، أي: لا داعي لموعظته. يقول الراوي: «فَلَم يَلبَث أنْ تاب»[2]، أي تاب بعد فترة وجيزة. فالاهتمام الجيّد بالصلاة إذًا ينطوي على كل هذه البَرَكة.

١- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مَن أَحَبَّ أنْ يَعلمَ أَقُبِلَت صلاتُه أم لَم تُقبَل فَليَنظُر هل مَنعَتهُ صلاتُه عن الفَحشاءِ والمُنكَر؟ فَبِقَدرِ ما منعَتهُ قُبِلَت مِنهُ» (البرهان في تفسير القرآن، ج٤، ص٣٢٢).

٢- رُوي «أَنّ فتىً من الأنصار كان يُصلّي الصّلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ويَرتَكِبُ الفواحِشَ فوُصِفَ ذلكَ لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: إنّ صَلاتَهُ تَنهاهُ يَومًا ما. فَلَم يَلبَث أَنْ تاب» (بحار الأنوار، ج٧٩، ص١٩٨).

وسُئِل أبو عبد الله الصادق عليه السلام: لماذا لا تسمّي الزاني كافرًا في حين أنّك تسمي تارك الصلاةِ كافرًا[1] وما الحُجَّةُ في ذلك؟ فقال: «لأَنَّ الزَّانِيَ وَمَا أَشْبَهَهُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِمَكَانِ الشَّهْوَةِ لِأَنَّهَا تَغلِبُهُ وَتَارِكُ الصَّلاةِ لا يَترُكُها إلاّ استِخفَافًا بِها، وَذَلِكَ لِأَنَّكَ لَا تَجِدُ الزَّانِيَ يَأتِي المَرأَةَ إلاّ وهُوَ مُستَلِذٌّ لإتيانِهِ إيَّاها قَاصِدًا إِلَيهَا، وَكُلُّ مَن تَرَكَ الصَّلاةَ قاصِدًا إِلَيهَا فَلَيسَ يَكُونُ قَصدُهُ لِتَركِهَا اللَّذَّةَ، فَإِذَا نُفِيَتِ اللَّذَّةُ وَقَعَ الاستِخفافُ وَإِذَا وَقَعَ الاستِخفَافُ وَقَعَ الكُفرُ»[2]. فكم في

١- لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَد كَفَرَ» (عوالي اللآلي، ج٢، ص٢٢٤).

٢- الكافي، ج٢، ص٣٨٦. وتوضيح الحديث هو أنّ الزاني لا يزني إلا لأن الشهوة الجنسية تتغلّب عليه، أما الشخص الذي يترك الصلاة فهو يتركها بسبب استخفافه بها. لماذا؟ يقول الإمام عليه السلام: لأن الزاني عندما يأتي المرأة فهو يأتيها مستلذًّا بذلك، لكن تارك الصلاة لا يترك الصلاة بسبب اللذة، إذًا فهو مستخفّ بها، والاستخفاف يؤدّي إلى الكفر.

تـرك الصـلاة مـن لـذّة يـا تـرى؟ وكـم يكسـب المـرء مـن المتعـة فـي عـدم الصـلاة؟ ألَيـس يفعـل ذلـك لمجـرّد أنّـه يريـد الاسـتخفاف بالصـلاة؟ أوَليـس لأنّـه لا يرغـب إلاّ فـي التجـرّؤ علـى الله عـزّ وجـلّ؟! وينبغـي ـ بالطبـع ـ الانتبـاه إلـى أنّـه كمـا أنّ فـي تـرك الصـلاة تجـرّؤًا علـى الله تعالـى، فـإنّ فـي تأخيرهـا أيضًـا شـيئًا مـن ذلـك أيضًـا.

الصلاة مُعَدَّةٌ لتأديبنا

لأيّ شـيء شُـرِّعَت الصـلاة؟ إنّهـا شُـرِّعَت من أجل إزعاجـك! فـالله عـزّ وجلّ لا يطلـب منك النـوم مدةً من الزمـن علـى المسـامير كـي ترتقـي روحُـك كمـا يفعـل المرتاضـون الهنـود. فهـو تعالـى يقـول لـك: «لا حاجة لـي إلـى نومـك علـى المسـامير، ولا ضـرورة لمقاسـاة انغـراز المسـامير فـي بدنـك دون أن تصـرخ مـن أجـل اكتسـاب بعـض القُدرات. فـإن أردت مجاهدَةَ نفسـك، فجاهدهـا بالصلاة».

- «يا شيخ، إنّنا نريد الإقبال على الله أثناء الصلاة»!

- «وهل يفهم مثلي ومثلُك أصلًا ما معنى الإقبال على الله، يا هذا؟! هل تعلم أنّ امتلاك القدرة على الإقبال على الله إنّما هي هديّة يهبط بها الله من السماء على عبده؟! بل إنّ هذه القدرة لا تأتي من دون تحمُّل أذى هذه الصلاة الحَسَنة».

الصلاة هي أن تقول لله: على الرأس والعين

الصلاة قبل كلّ شيء هي أن تقول لله: «على الرأس والعين» وتمتثل لأمره، وهذا شيء في منتهى الروعة. حاول أن تنظر إلى الصلاة بهذه النظرة. مَرِّغ جبينَك في التراب وقُل:

أَوَلَستَ تهوَى أن ترى تعفيرَ خَدّي بالتُّرابْ؟

أو أن تراني هالكًا في نظرةٍ بالي الثِّيابْ؟

ها قد صُرِعتُ على صَعيدِ الأرض مَغشِيًّا عَلَيَّ

ها قد هَويتُ ببابِ جودِك ساجدًا فانظُر إِلَيَّ

فبيـن يَـدَي مَـن أسـجدُ يـا إلهي إنْ أنـا لـم أسـجد بين يديك ؟

إذًا أَظهِـر أثنـاء صلاتـك بأنّـك تهابُ ربَّك وتحسـب لـه حسـابًا، وليس هـذا بالأمـر الصعب.

احترام الجنديّ الشديد لقائده

يعلـم الذيـن قضَّـوا خدمتَهـم العسـكريّة أنّ أوّل مـا يُقـال للجنـديّ فـي حامِيَتـه: «مِن اليـوم فصاعـدًا متى ما رأيـت قائـدَك وجَبَ عليـك أن تضرب قدمـك بالأرض وترفـع يـدك احترامًا مؤدّيًـا التحيَّة العسـكريّة. وإذا أراد قائـدُك المغـادرة وأُمـرتَ بأخـذ حالـة الاسـتعداد، فمـا لـم يأتِـك الأمـرُ بالاسـتراحة أو يغـادر قائـدُك المـكانَ فليـس مـن حقّـك أخـذُ وضـعِ الاسـتراحة. وإذا رغبتَ فـي تحريـك قدمك فـلا يجوز لك ذلـك قبـل أن يُصدر آمِرُك الأمـرَ: «اسـتَرِح». وإذا بَلَغتَ مكانًا مسـقّفًا فعليك خلـع قبّعتك،..الـخ». فالجنـديّ يُلقَّـن بهـذه الأمـور منـذ اليـوم الأوّل وعليـه تطبيقهـا مـن اليوم التالـي وإلاّ فسيعاقَب.

فلا تجد في الخدمة العسكريّة مَن يدّعي القول: «من محاسن الصُّدَف إنّ هذا القائد قريبي جدًّا، وهو صديقي الحميم. إنّه ودود إلى أبعد الحدود. أنا كلّما دخلتُ عليه فتحتُ ذراعَيَّ وارتميتُ في أحضانه قائلًا له: كيف حالُك يا صديقي، أأَنت بخير؟!». نعم، ليس في العسكريّة شيء من هذا. فلو دخل جنديّ على قائده وحاول إظهار المودّة والصداقة الحميمة فسيسمَع صرخةً تصمّ الآذان: «خُذ وضعَ الاستعداد»، أي: «تنبَّه إلى أنّك تقف أمامَ قائدك وعليك احترامه».

سبب التشدّد في احترام القائد العسكريّ

لكن ما علّة هذا التشدّد الفائق عن الحدّ الذي تنتهجه جيوش العالم بالنسبة إلى احترام القائد العسكريّ؟ ولماذا لا يجب على موظّفٍ المصرف مثلًا، أو سائر مؤسّسات الدولة التابعة لهذه البلدان نفسها، أخذُ وضعِ الاستعداد أو أداء التحيّة العسكريّة لدى وقوفه أمام مسؤوله أو رئيس مصرفه؟ ولِمَ

لا يتعيَّـن علـى عامـل المتجَـر أن يصنـع كمـا يصنـع الجنـديّ فيـؤدّي التحيّة العسـكريّة لصاحـب المتجَر إذا أمَـرَه بشـيء؟ فالنـاس في هـذه الأماكـن أكثـر راحةً من الجنـود فـي المعسـكرات.

الجـواب هـو أنّ الأمـر النهائـيّ الـذي يصـدر فـي الجيـش أثنـاء الحـرب هـو أمـرُ حيـاةٍ أو مـوت. فبينمـا قذائـف العـدوّ تتسـاقط يَصـدُر الأمـر مـن القائـد: «أيّها الجنـديّ، تقـدّم إلـى الأمـام»! ومـن المُحتمـل أن يُقتل الجنـديّ إنْ تقـدَّم، وهـو بطبعـه يحـبّ نفسـه، لكـن من الواجـب عليـه إذا مـا صـدر أمـر قائـده أن ينسـى خطـر المـوت، أو خطـر الإصابـة بقطـع النخـاع الشـوكيّ. وبعبـارة أدَقّ: عليـه أن يهـابَ قائِـدَه ويحسـبَ لـه ألـفَ حسـاب. فـلا يتحتّـم علـى عامـل المتجَـر أن يحسـب لرئيسـه كلّ هـذا الحسـاب، فيكفيـه أن لا يبـدُر منـه ظُلـم، ولا تمتـدّ يدُه إلى مـا ليس لـه، ويعملَ جيّـدًا. أمّا الجنـديّ فـي الحـرب فعليـه أن يهـابَ قائـدَه كثيـرًا.

ما هي الصلاة الجيّدة؟

استحواذ هيبةِ القائدِ على قلب الجندي

لا تقِس على سنوات دفاعِنا المقدَّس الثماني حيث كان مجاهدونا يتقدّمون للقتال هكذا يدفعهم العشق. فلقد كانوا عُشّاق شهادة، وكانوا يرون الله تعالى.

لكن ما الذي يصنعونه في جيوش العالم وهم ليسوا من طلاب الشهادة؟ هم يقولون: «علينا أن نجعل عظمةَ القائد وهيبتَه تستحوذ على قلب الجنديّ. كيف؟ بالانضباط العسكريّ والمكانة التي نصنَعُها للقائد في عين الجنديّ وبذلك نجعل هيبَة القائد تترسّخ في قلبِ الجنديّ. فبتطبيق الآداب العسكريّة وفرضِ نظام صارم داخل الحامية نتمكّن من جعل القائد عظيمًا مُهابًا في عين جنديّه، وعندها ستُحَلّ مشكلتنا في تلك اللحظات الحرجة وسيتم تنفيذ أمر القائد وسيمتثل الجنديّ حتّى إن أمرَه قائده بإلقاء نفسه على الموت».

ضرورة الالتفات إلى عظمة الله

حكمة وردِ «الله أكبر» في الصلاة

لماذا نستعمل عبارة: «الله أكبر» في الصلاة بدل: «الله الرحمٰن» أو «الله الرحيم»؟ أَوَلم يَرِد في أدعيتنا ما نصّه: «**يَا مَن سَبَقَت رَحمَتُهُ غَضَبَه**»[1]؟ أما كان من الأفضل أن نقول: «الله الرحيم» عوضًا عن قولنا «الله أكبر»؟ ألا يجذب ذلك القلوبَ أكثر إلى الصلاة؟ فما سبب كلامنا عن كبرياء الله كلما وقفنا للصلاة؟

وحينما يناجي ذاكرو أهل البيت عليهم السلام ربَّهم لدى تلاوتهم دعاءَ كميل فإنّهم يحدّثوننا باستمرار عن رحمة الله عزّ وجلّ ورأفته، فتنهمر دموعنا لذلك. فلماذا لا نلجأ في الصلاة إلى هذه الحيلة فنقول عوضًا عن قولنا «الله أكبر»: «الله الرحمن» أو: «إلهي، يا حبيب قلبي، كم أنت رؤوف»

١- مصباح المتهجّد، ج٢، ص٦٩٦. ومفاتيح الجنان، دعاء الجوشن الكبير، المقطع ٢٠.

كي تنهمل دموعنا بغزارة؟ فما الضرر في أن نغازل الله بهذه الصورة؟ فالمغازلة وذَرفُ الدمع لا يكون متاحًا لدى الحديث عن كبرياء الله وعظمته.

الصلاة والتدريب على عظمة الله وجلاله

لماذا نكثر في الصلاة من قول: «الله أكبر» إلى هذا الحدّ؟ ولأجل أيّ شيء تطفح الصلاة بعظمة الله تعالى؟ ولأيّ سبب نعفّر جباهنا بالتراب دائمًا أمام كبرياء الله؟ ومن أجل ماذا يتعيّن علينا في كل ركعة صلاة أن نأتي بالركوع والسجود أيضًا؟

الجواب: لأنّ الصلاة ـ كما هو حال معسكر التدريب ـ تريد أن تعلّمنا شيئًا واحدًا، هو عظمة الله وجلاله. فإنْ أراد القائد ترسيخ عظمته وهيبته في قلب جنديّه فسوف لا يقول له: «أيّها الجندي، سأشتري لك سيّارة مقابل أن تطيع أوامري أفضل طاعة». والآمر لا يملأ جيوب الجندي بالحلوى من أجل بضعة أشهر يقضيها الجنديّ في معسكر

التدريـب ويقـول لـه: «يـا حبيـب قلبـي، ها قد اشـتريتُ لـك اليـوم شـيئًا لذيـذًا آخـر وأطلب منـك فـي المقابل أن تمتثـل أوامـري، وإذا نشـبَت يومًـا مـا حربٌ فـلا تفرّ مـن الزحف». «عزيـزي، أنا موافـق.. أنت لسـتَ مُجبرًا علـى حلـق رأسـك بالكامـل. أنـا سـأصفّف شـعرك بنفسـي وأجعلـه بالقَصَّـة التـي تهواهـا، بل سـأضع لك الجِـلّ أيضًـا، لكـن كمـا أهتـمّ بـك الآن فـإن عليـك أن تسـمع قولـي فـي ميـدان القتـال»!

في الجيش لا محلّ لكلمة «لماذا»!

يخاطـب البعـض ربّـه قائـلًا: «إلهـي، حُـلَّ لـي مشـكلتي كـي أصلّـي لـك»! وحـال هـذا حـال الجنديّ الـذي يقول لقائـد حاميته: «عليـك أوّلًا أن تهتـمّ بي كلّ الاهتمـام وتقضـي لـي حوائجـي كـي أُقاتل مـن أجلك غـدًا»! ولـو أراد القائد العسـكريّ أن يتعاطـى مع جنديّه علـى هـذا النحو لما اسـتقرَّت عظمـةُ ذاك القائـد وهيبتُه فـي هـذا الجنـدي نفسـه، وسينكشـف أثر ذلك غـدًا في

اللحظات الحاسمة والخطيرة للحرب حينما يتملّص الجنديّ من طاعة أوامر قائده. فإن وجَّهَ إليه القائدُ الأمرَ بالتقدّم، ردّ عليه: «خبّرني أوّلًا، لماذا عليَّ أن أتقدّم»؟ لكن من المعروف منذ قديم الزمان أنّه ليس هنالك كلمة «لماذا» في الجيش.

ولسنا هنا في صدد مناقشة إنْ كانت هذه الأمور في الجيش صحيحة أم خاطئة، وما هي حدودها إن كانت ضروريّة، لكنّ أمر القائد في القوّات المسلّحة حسّاس ومهمّ إلى أبعد الحدود. فلا بدّ في هذه القوّات أن تكون الهيكليّة مُحكَمة، ومن هنا نراهم يطبّقون نظام انضباطٍ عسكريّ وآدابٍ خاصّة يتعيّن على الجميع مراعاتها.

وينبغي لمثل هذا الشيء أن يحصل على باب الله أيضًا كي تستحوذَ عظمةُ إلهِ العالمين وجلالُه على قلوبنا.

إدراك عظمة الله لازمٌ لطاعته

لأيّ شيء ينبغي لعظمة الله وهيبته أن تُنقَش في قلوبنا؟

أحد الأسباب لذلك هو أنّه ما لم تنتقش عظمة الباري عزّ وجلّ في قلب الإنسان فإنّه سوف لا يمتثل أمره ولا يعمل بطاعته كما يجب، فهو سيؤدّي ما عليه من تكاليف متى ما وجد في نفسه الميل إلى ذلك، ويتركها حينما لا يستشعر الرغبة فيها!

انعدام عظمة الله في قلبك بسبب انعدام القدرة على ترك المعصية

يسأل البعض: «يا شيخنا، إنّني غير قادر على الإقلاع عن المعصية مهما حاولت، فماذا أصنع»؟

- «أَقلِع عن المعصية من أجل الله».

- «لا أستطيع فعلَ ذلك حتّى من أجل الله».

- «أفهَمُ من ذلك إذًا أنّك لا تقيم لله وزنًا، وأنّه تعالى ليس جليلًا عظيمًا عندك إلى الحد الذي يدفعك إلى إطاعته».

فإذا ترسّخت عظمة الباري جلّ وعلا في نفوسنا كانت لذلك آثارٌ وبركات جمّة. فمضافًا إلى أنّها تبعث فينا روح الطاعة له تعالى والامتثال لأوامره بحذافيرها فإنّ لها غير ذلك من الآثار والبركات ممّا سنشير إلى أهمّها فيما يلي.

الاتّصاف بالعظمة مقدّمةٌ للمحبّة

هل نحن بحاجة إلى أن يكون الله تعالى عظيمًا في قلوبنا أو لا؟

ولو أنّني صُغتُ سؤالي بهذه الطريقة: «هل من اللازم أن نحبّ الله تعالى»؟ لردّ الجميع بالإيجاب عن طيب خاطر. لكنّني لو طرحته بهذه الصيغة: «هل من الضروريّ أن تكون لله في قلوبنا عظمةٌ وجلال»؟ لاستغرق البعض في التفكير وقال: «أيّها الشيخ، إنّ هدفك من كلّ ما تطرحه من بحوث وحوارات ومحاضرات هو أن نصير في النهاية محبّين لله، وأن

نفديه بأنفسنا، ونكون مملوكين له، ومطيعين لأوامره ونواهيه، ومن الطبيعيّ أن نسير في هذا الاتّجاه، فما الداعي لطرح موضوع العظمة هذا يا ترى»؟

إدراك عظمة الله يمهّد لمحبّته

لا يعلم الكثيرون بأنّ الطريق الذي عليهم سلوكه لبلوغ منزل «محبّة الله» هو ذلك الذي يتعيّن فيه ـ أوّلًا ـ أن يعشّش الشعورُ بعظمة الله في قلوبهم. فكلّ مَن استقرّت عظمة الله تعالى في قلبه فسيحسّ بمحبّة ورغبة تجاهَه ليس للآخرين منها نصيب سوى الكلام.

فالجملة الأولى من أحد أدعية شهر رمضان المبارك الوارد بعد كلّ فريضة، والذي يحفظه الجميع تقريبًا تقول: «يا عَلِيُّ يا عَظيمُ»، ثمّ تليها عبارة: «يا غفورُ يا رحيمُ»[1]. فالدعاء يحدّثنا أوّلاً عن عظمة الله عزّ وجلّ ثمّ ينتقل إلى رحمته. فمَن

١- مفاتيح الجنان، أدعية شهر رمضان المبارك.

ما هي الصلاة الجيّدة؟

أراد الالتذاذ بـ«يا غفورُ يا رحيمُ» فإنّ عليه أوّلًا أن يأنس بـ«يا عَلِيُّ يا عَظيمُ».

وإنّ الله عزّ وجلّ إنْ أحبَّنا وقضى حوائجنا فسنعلم أنّه غفور رحيم، لكن ما الذي عليه فعله كي ندرك أنّه عظيم حقًّا؟

عظمة الله تُدرَك بالصلاة الحسنة

أتريدُ الانتظار حتّى يومِ القيامة كي تلمس عظمة الله عزّ وجلّ هناك؟ هناك حيث يقال: «يا مَن في الحِسابِ هَيبَتُه»؛ أي يا من يُعلَم مقدار هيبته عند محاسبةِ أعمال العباد؟ و«يا مَن في المَماتِ قُدرَتُه»؛ أي يا أيّها الربّ الذي ستُري عبدَك قدرتَك في الموت[1]. فالإنسان ساعةَ نزع الروح سيعرف ـ لتوّه ـ ما الذي يجري في العالم وإلى أيّ مدى تبلُغ قدرةُ ربّه. فهل تريد أن تدرك هذا هناك؟

١- المصباح للكفعمي، دعاء الجوشن الكبير، ص٢٥٢. ومفاتيح الجنان، دعاء الجوشن الكبير.

إذًا فكيـف يمكـن للمـرء أن يدرك عظمـة الله في هذه الدنيـا؟ الجـواب: بمعونة الصلاة الحَسَـنة.

حبّ الله بلا عظمة مستحيل

- «يـا شـيخنا، هـل ثمّـة مشـكلة لـو أنّنـا أحببنـا الله هكـذا دون أن تنغـرس عظمتـه فـي قلوبنـا»؟

- «هـذا غيـر ممكـن يـا عزيـزي، ولـو كان ممكنًـا فلا بـأس. فكـم قـد جلسـنا نصغـي لأقاصيـص عشـق الله ومحبّتـه وحكايـات لطفـه ورأفته، وكـم ذرفنـا العَبَرات وبكينـا بدمـوع سـخينة، لكـن بمجـرّد خروجنـا مـن المجلـس تعـود أحوالنـا إلى سـابق عهدهـا ولا يحدث فـي دواخلنـا تغييـر يُذكر!

أتعـرف لمـاذا أنـت تعشـق عليًّـا بـن أبي طالـب عليه السـلام إلى هـذا الحدّ؟ ذلك لأنّك سـمعتَ بسـيفه «ذو الفقـار»، وعلمـتَ بغضبـه وهيبته. أتعلم لِـمَ أنت تحبّ قمـر بنـي هاشـم أبـا الفضـل العبّاس عليـه السـلام أكثر مـن كلّ شـهداء كربـلاء؟ ذلـك لأنّـه سـلام الله عليـه قد

فاقَ غيرَه في السطوة والهيبة وحمل اللواء. فنحن نهاب العبّاس عليه السلام مهابةً خاصّة، في الوقت الذي نحبّه محبّة غامرة أيضًا. فمحبّتنا الشديدة هذه لأبي الفضل العبّاس عليه السلام جاءت بعد أن تمكّنت شدّة عظمته وهيبته من نفوسنا.

فلو قيل لك: «كان أبو الفضل العبّاس عليه السلام رجلًا صالحًا وفيًّا غاية الوفاء لأخيه أبي عبد الله الحسين عليه السلام، لكن يا للأسف، فقد كان نحيفًا ضعيفًا إلى درجة أنّه كان يسقط من فوره بدفعَةٍ واحدة، حتّى إنّه استُشهد عند أوّل القتال»! فهل سيظلّ العبّاس عليه السلام عزيزًا عندك إلى هذا الحدّ»؟

نفي عظمة الله في بعض المدارس العرفانيّة الزائفة

يحبّ البعض أن يلغي قدرة الله عزّ وجلّ وعظمته ويكتفي بمغازلته! وإنّ بلدنا الحبيب، هذا الذي يفيض بالروحانيّة ويطفح بالنعم المعنويّة،

يخضع لعمليّة زراعة ألغام! فالمدارس العرفانيّة المستورَدة والزائفة باتت ترِد علينا من بلاد الغرب والشرق لتحول ـ عبر ظواهرها الفاتنة ـ دون تعرّف الناس على العرفان والمعنويّات الحقيقيّة. فهناك إلى ما شاء الله من الكتب التي تُطبع بالفارسيّة لمختلف المؤلّفين الغربيّين والشرقيّين ممّن لا يدينون بأيّ دِين إلا أنّهم يتحدّثون إلى الله، أو بالأحرى «يغازلون الله» كما يدّعون! وكتبهم تعجّ بالمضامين العالية فيما يتّصل بكون الله حنونًا ورؤوفًا، وأنّه يسمع كلامنا، ويحبّنا، وما إلى ذلك.

الرب «الرؤوف بلا عظمة» مشكلة بعض الأديان ومدارس العرفان الزائف

قد يتبادر إلى الذهن هنا سؤال هو: ما المانع من هذا الكلام الجميل؟

لكن هل تعلم ما مشكلة بعض الأديان؟ إنّ مشكلتهم تكمن في أنّ إلههُم لا عظمة له. فهو رؤوف فحسب، ولا يُتقن غير المغفرة. لكنّ الإله

الـذي لا يحسـب لـه الإنسـان حسـابًا لا يسـتطيع هـذا الأخيـر أن يحبّـه أيضًـا.

إنّ مشـكلة المـدارس العرفانيّـة المزيّفـة هـي أنّ الله عندهـم رؤوف غفـور، لكنّـه ليـس بعظيـم. فهـل تعلـم أيّ كارثـة تتسـبّب بهـا هـذه المسـألة؟

إنّ الجميـع يرغبـون فـي محبّـة الربّ الـذي لا عظمة لـه، لكـن لا أحـد منهـم سـيحبّه مـن الناحيـة العمليّـة. والـكلّ يـودّ أن يعشـق الإلـه الصانع للعشـق، بيـد أنّه ما مـن امـرئ سيعشـق إلهًـا لا يتّصـف بالعظمة.

الاهتمـام بعظمة الله هو مفتاح لمحبّته

استحالة إدراك محبّة الله دون إدراك عظمته

إذا حُدِّث الشـخص الذي لم تسـتقرّ عظمـة الله تعالى فـي قلبـه عـن محبّـة الله فإنّـه ـ وإن التـذّ بذلـك بعـض الشـيء ـ سـوف لا يسـتطيع مقابلة هـذا الحـبّ بالمثل، وسـيقول الله تعالـى لـه يـوم القيامـة: «لطالما قلـتُ لك:

كم أُحبُّك، فماذا كان ردّ فعلك»؟! فالذي لا تَعمُر عظمةُ الخالقِ قلبَه لا يمكنه أن يدرك محبّة الله له كما ينبغي، ولا يكون قادرًا على مبادلة اللهِ بالحبّ.

تعال وانظر إلى نبعٍ من محبّة الله عزّ وجلّ في الرواية التالية: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لربّه: «إلهي، إنّ يوم القيامة يوم الفضيحة وانكشاف السرائر، فهلاّ وقيتَ أُمّتي الفضيحة في ذلك اليوم؟ فهم أتباعي وأنا أودّ أن تحاسبهم في جانبٍ قَصيّ من صحراء المحشر فلا يطّلع على معاصيهم غيري وغيرُك».

انظر إلى مدى محبّة رسول الله صلى الله عليه وآله لنا.

نموذج من محبّة الله لعباده

فيقول الله سبحانه: «يا حبيبي، أنا أرأَفُ بعبادي منك... فأُحاسبهم وحدي بحيث لا يطّلع على

عثراتهـم غيـري»[1]، أي: ليـس إنّني ـ يا حبيـب فؤادي ـ أرأفُ بعبـادي منـك فحسـب، بـل إنّ منشـأ المحبّة التي تُكنّهـا أنـت لأمّتـك هـو أنا. أمـا وقد سـألتني ما سـألتَ فإنّـي سـآخذ أمّتـك إلـى جانـبٍ من صحـراء المحشـر لا يطّلـع علـى أعمالهـم غيـري، وحتّـى أنـت سـوف لا أُطلعـك عليهـا كـي لا يُهـرَق مـاء وجوههـم أمامـك!

فهـل فـي ميسـورنا أن نقابـل محبّـة رسـول الله صلى الله عليـه وآلـه هـذه بالمثل؟ وهـل نسـتطيع أن نبادل الله تعالـى الحـبّ كمـا يحبّنا هو؟ وهـل سـنصبح صالحين عبـر كلّ هـذا الحـبّ تجاهنا؟

١- فـي الخبـر: «أنّ رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه يطلـب يـوم القيامـة مـن الله سـبحانه ألا يحاسـب أُمّتَـه بحضـرة مـن الملائكـة والرُّسُـل وسـائر الأُمـم، لئـلا تظهـر عيوبهـم عندهـم، بـل يحاسـبهم بحيـث لا يطّلـع علـى معاصيهـم غيـرُه سـبحانه، وسـواه صلـى الله عليـه وآلـه، فيقـول الله سـبحانه: يـا حبيبي، أنـا أرأَفُ بعبـادي منـك، فـإذا كرهـتُ كشـف عيوبهـم عنـد غيـرك، فأنـا أكـره كشـفَها عنـدك أيضًـا، فأحاسـبهم وحـدي بحيـث لا يطّلـع علـى عثراتهـم غيـري» (جامـع السـعادات، ج٢، ص٢٨١).

في العادة فإنّهم مهما حدّثونا عن هذه الأنماط من الحبّ فسوف لا نغدو صالحين. فإذا وددنا إدراك محبّة الله تبارك وتعالى وأحببنا أن تكون ذاتَ أثر في نفوسنا فلا بدّ ـ بادئ ذي بدء ـ أن تستقرّ عظمته عزّ وجلّ في قلوبنا.

هناك آية قرآنيّة قد سمع الجميع نصفها الأوّل وعرفَه وهو: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1] لكونه طافحًا بالرأفة والرحمة. إذ إنّنا نحفظ عادةً كلّ آية تتحدّث عن الحبّ والحنان. أمّا بقيّة الآية فمعظم الناس غير مطّلعين عليها لكونها تخبر عن عظمة الباري عزّ وجلّ فتقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي سيدخلون النار بمنتهى الذلّ والهوان.

هذا هو الله الذي يمتلئ القرآن الكريم بكلامه حول عظمته. فهل تظنّ أنّه إذا أخبرَ الله عن عظمته

١- سورة غافر، الآية ٦٠.

وأظهَرَها فإنه سوف لا يسعى إليه ساعٍ ولا يعشقه عاشق؟ لا بل إنّ عشق الإنسان لربّه يبدأ من لمس عظمة مقام ربوبيّته. فمَن ذاك الذي يلاقي الله تعالى يا ترى؟ إنّه الشخص الذي تصفه الآية: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾[1]، أي الذي يخاف الحضور في مقام عزّ ربوبيّة الباري تعالى.

عدم دعاء الله علامةٌ على التكبّر

ولنعد إلى الآية السابقة حيث يقول عزّ من قائل: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. ثمّ يُتبعه فورًا بالقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي: «إنّ الذين يتكبّرون عن القدوم إليّ ولا يسألونني شيئًا فسوف لا أُدخلهم جهنّم بشكل عاديّ كما أفعل مع غيرهم، بل أُدخلهم إيّاها بذلّة ومهانة». والمراد من ذلك في الواقع هو: «إنّني ربّك، وأنا أقول لك: ادعُني لأُجيبَك، فإذا

١- سورة النازعات، الآية ٤٠.

بـك تطأطـئ رأسـك وتلتـزم الصمـت! أو لا تبالـي بالمـرّة وتنصـرف عنّـي»! فهـذا النمـط مـن التعامـل دليـل علـى تكبّـر الإنسـان علـى ربّـه.

إنّـك إذا جلسـتَ فـي مجلـس فاتحـة وأتـاك صبـيّ يقـدّم لـك التمـر (علـى روح الميـت) قائـلًا: «تفضّـل» فإنّـك لا تعاملـه معاملـة اللامُبالـي لأنّ فـي ذلـك قلّـة احتـرام، وإن كان الطـرف الآخـر مجـرّد صبـيّ. وحتّـى لـو لـم تكـن تشـتهي التمـر، فإنّـك تقـول لـه: «شـكرًا جزيـلًا. لا أشـتهي التمـر. أنـا مُمتَـنّ لـك». أي إنـك تجيبـه علـى أيّـة حـال. فمـا بالـك إذا جـاءك الله بـكلّ عظمتـه وجلالـه وقـال لـك: «اسـألني شـيئًا لأُعطيـك إيّـاه!» فإذا بـك تطأطئ رأسـك وتنصرف غيـر مكترث؟ فهـل تتكبّـر علـى الله يـا هـذا؟ هل ترفـض محبّتـه؟ هل تُعلـن اسـتغناءَك عنـه؟!

هـذا وإنّ الله تعالى ـ من جانبه ـ لا يمزح مع أحد.

سبب أهمّية تعقيبات الصلاة

أتـدري ما سـبب عدم قبـول الصلاة التـي لا تعقيبات بعدها؟

الجــواب: لأنّ الله يخاطبــك بعــد فراغــك مــن الصــلاة: «عبــدي، لقــد صلّيــتَ. لقــد أقمــتَ لــي وزنًــا، وامتثلــتَ أمــري. أحســنت. أمَــا وقــد فعلــتَ ذلـك فـإنّ مـن حقّـك علـيَّ دعـوةً مسـتجابة، فاسـألني حاجتَــك وســأَقضيها لــك»[1]. فــإذا بــالله عــزّ وجــلّ يـرى عبـده يهـمّ بالنهـوض مـن سـجّادته والانصـراف دون أن يســأله شـيئًا! مــا معنــى هــذا العمــل؟ أليــس هــو عـدم مبـالاة بـالله تعالـى؟ أوَليـس هـو تكبُّـرٌ علـى الله وإعــلانٌ للاســتغناء عنــه؟

رُوي عــن النبيّ صلــى الله عليه وآله أنّه قــال: «**إِذَا فَرَغَ العَبْـدُ مِـنَ الصَّلاةِ وَلَـمْ يَسْـأَلِ اللهَ تَعَالَى حَاجَـةً يَقُولُ اللهُ تَعالَـى لِــمَلائِكَتِهِ: انظُرُوا إِلَـى عَبدِي فَقَـدْ أَدَّى فَرِيضَتِي**

١- قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه: «مَـن أَدَّى فَرِيضَـةً فَلَـهُ عِنـدَ اللهِ دَعـوَةٌ مُسـتَجَابَةٌ» (عيـون أخبـار الرضـا، ج٢، ص٢٨).

وَلَـم يَسـأَل حَاجَتَـهُ مِنّـي، كَأَنَّـهُ قَدِ استَغنَى عَنّـي. خُذُوا صَلاتَـهُ فَاضرِبُـوا بِهـا وَجهَـهُ»[1]. وكأنّي بـه تعالى يقول: «فـلأيّ شـيءٍ ـ أساسًـا ـ يمتثـل العبـد المسـتغني عنّـي لأمـري؟ لَكَأنّـه يـودّ أن يقـول لـي بفعلتـه هذه: «لسـتَ لـي ربًّا، ولسـتُ لك عبـدًا»»!

إنّ عـدم دعـاء الله تعالـى والترفّـع عن طلـب الحاجة منـه فـي المحـلّ الـذي يقـول تعالـى لنـا فيـه: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[2] هـو قلّـة أدب تجـاه ربّ العالميـن.

الخـوف من الله هو ثمرة الاعتقاد بعظمته

إذًا عليـك أن تؤمـن بعظمـة الله تعالـى وتجعلهـا تسـتحوذ علـى قلبك، وأن تحسـب لله حسـابًا، وتقيم له وزنًـا، وسيسـتقرّ الخـوف مـن الله فـي قلبـك بالتدريج. وشـيئًا فشـيئًا سـتتحوّل خشـيةُ الله إلى شـيءٍ حُلـوٍ لذيذٍ

١- مستدرك الوسائل، ج٥، ص٢٩.

٢- سورة غافر، الآية ٦٠.

لـك، وسـتكون المفتـاح لعلاقـة الحـبّ بينـك وبين الله سـبحانه وتعالـى.

سبب شيوع الروحانيّة في جبهات القتال

أتعـرف مـا سـبب توقُّـد مشـعل الروحانيّـة كلّ ذلـك التوقّـد بيـن صفـوف المجاهديـن فـي جبهـات القتال؟

الجـواب: لأنّ المـوت كان ماثـلًا هنـاك للعيـان ومحسوسًـا بـكلّ سـهولة، والمـوت يُلقـي هيبـةَ الله في كيـان الإنسـان. فقـد كان يقـال للمجاهديـن: «إنّ قُـربَ ليلـة العمليّـات القتاليّـة يعنـي قُـربَ لقـاء الله، أتـدرون معنـى ذلـك»؟ فـلا تلبـث أن تسـتحوذ خشـية الله علـى أنفسـهم. فـإذا اسـتحوذت خشـية الله علـى قلـب العبـد احتضـنَ الله عبـدَه الحبيـب هـذا ولاطفَـه.

ولا بـدّ أنّـك رأيـت كيـف أنّ الأُمّ إذا ارتعـب طفلُهـا ضمَّتـه مـن فورهـا إلـى صدرهـا وأخـذَت تلاطفـه وتحنـو عليـه. ولعمـري إنّ الله يشـبه هـذه الأمّ، فـإن رأى أنّ عبـدَه يهابُـه، أخَـذَ بملاطفتـه قائـلًا لـه: «لا

تخـف يـا عبـدي»! وبـادَرَ إلـى إلقـاء رأفتـه وحنانـه فـي قلبـه، وإذاقتِـه محبّتَـه.

الخوف مفتاح علاقة الحبّ مع الله

وهـذا مـا يسـمّى «بعلاقـة الحـبّ مـع الله»، وإنّ مفتاحهـا الخوف. ففي الخبـر: «**المُؤمِـنُ... ولا يُصلِحُهُ إلاّ الخَـوف**»[1]، أي الخـوف مـن الله.

على أنّنـا إلـى الآن لم نَخُـض في موضـوع الخوف، وبحثُنـا مـا زال يـدور فـي نطاق ضـرورة أن نحسـب لله بعـض الحسـاب، ونؤمـن قليـلًا بعظمته.

طريق وقوع عظمة الله في القلب

إنتاج عظمة الله

عظمـة الله فـي هـذه الدنيـا ينتجهـا الإنسـان نفسـه. إذًا أنـت الـذي عليـه أن ينشـئ فـي قلبـه عظمـة البـاري تعالـى.

لكـن بـأيّ شـيء نولّد عظمـة الله فـي قلوبنـا؟ نولّدها بـأن نقيـم لأمـر الله ونهيـه وزنًـا، ونراعـي الأدب فـي

١- الكافي، ج٢، ص٧١.

الصلاة. فكلّما زادت وحسُنَت مراعاتك لأحكام الصلاة وآدابها دلّ ذلك على أنّك قد حسَبْتَ لأمر الله حسابًا وكان هذا مدعاةً لجلال الله تبارك وتعالى في قلبك.

فأيّ شخص تتأدَّب أمامه تستقرّ هيبةُ ذلك الشخص في قلبك. أفلا تحبّ أن تستقرّ هيبة الله في قلبك؟

يقول أحدهم: «أيّها الشيخ، أنا لا أخاف من الله. فما عساي أصنع»؟

ـ «لا شكّ أنّك لا ترى لله تلك الأُبَّهة والعظمة. لا بدّ أنّك لم تؤدِّ صلاتَك على نحو جيّد! أو أنّك حكَكتَ رأسك أثناءها! أو أنّك لم تكن مؤدَّبًا في صلاتك وكانت عيناك تجولان يمينًا وشمالًا وأنت تصلي! أو أنّك لم تدقّق في نطق كلمات الصلاة»!

إنّ الله لَقادر، وبكلّ بساطة، على لَيٍّ آذاننا بشدّة، كي نتنبّه! لكنّه تعالى لطيف، وهو يمنحنا الفرصة قائلًا: «على عبدي أن يعرف خطأه بنفسه ويبادر هو إلى إصلاحه».

فإن حسبتَ لله أثناء الصلاة حسابًا فسيتعاظم جلالُه في نفسك ولا تعود ثمّة حاجة إلى أن ينهرَك، بل سيقول لك: «حبيبي، أنا أستاء من فعلك هذا».

فتجيبه: «حسنٌ.. سوف أكفّ عنه».

هكذا ينبغي أن تكون العبوديّة. وإلا فما من جدوىً من أن يَظلّ الإنسان يكابِد في إقناع نفسِه بالحدّ الأدنى من الأعمال، بأنْ: «لا تفعلي هذا وافعلي ذاك»؟! إذ سيخاطبه الله تعالى بالقول: «لا داعي لأن تُهلِكَ نفسك من أجل دُقَيقات تقضّيها معي؟ اذهب وأرِح بالك ولا تكدّر خاطرَك»!

سرّ عدم امتلاك الفرصة لمناجاة الله

بعض الناس إذا قلتَ له: «تعال نحضر مجلس دعاء كميل» أجابك: «لا وقت لي الآن لدعاء كميل. أنا مشغول». إنّه مصيب.. فهو مشغول حقًّا. لكن لِمَ هو مشغول، ولا وقت لديه؟ لأنّ الله سبحانه وتعالى إذا كَرِه عبدًا جعله يُدبِر عنه. بل إذا طرق بابَه لحاجةٍ ما عجّل في قضائها له كي لا يسمع صوتَه[1].

لماذا لا وقت لديك لربّك؟ ومن الذي شغلك فلم يعُد لديك الوقت؟

نعم، إنّ الله عزّ وجلّ يُلهي البعض إلى درجة أنّه لا يجد الوقت لمناجاة ربّه[2]. لكن ثمّة من الناس

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَعَظَمَتِي وَبَهَائِي إِنِّي لأَحمِي وَلِيِّي أَن أُعطِيَهُ فِي دارِ الدُّنيا شَيئًا يَشغَلُهُ عَن ذِكرِي حَتّى يَدعُوَني فَأَسمَعَ صَوتَهُ، وَإِنِّي لأُعطِي الكافِرَ مُنيَتَهُ حَتّى لا يَدعُوَني فَأَسمَعَ صَوتَهُ بُغضًا لَهُ» (التمحيص، ص٣٣).

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «في التَّوراةِ مَكتُوبٌ يا ابنَ آدَمَ تَفَرَّغ لِعِبادَتي أَملأ قَلبَكَ غِنىً وَلا أَكِلكَ إِلى طَلَبِكَ وَعَلَيَّ أَن أَسُدَّ فاقَتَكَ وَأَملأ قَلبَكَ خَوفًا مِنّي، وَإِن لا تَفَرَّغ لِعِبادَتي أَملأ قَلبَكَ شُغُلًا بِالدُّنيا ثُمَّ لا أَسُدَّ فاقَتَكَ وَأَكِلكَ إِلى طَلَبِكَ» (الكافي، ج٢، ص٨٣).

مـن يتـوق اللهُ جـدًّا إلى سـماع صوتِـه في حضرتـه، إلى درجـة أنّـه يوقظُـه إذا كان نائمًـا. والشـيخ مرتضى زاهد الطهرانـي مـن هـذا النمط مـن الناس.

يُحكى عن أحوال الشيخ مرتضى زاهد الطهراني أنّ أصواتًا كانت تناديه في جوف الليل: «مرتضى.. مرتضى»، وكان يقول: «إنّي أسمعُ أصواتًا تناديني من كلّ جانب من جوانب الغرفة: مرتضى»، أي: قم لصلاة الليل.

أجل، الله أيضًا له قلب، ولا بدّ أنّه قد اشتاق إلى مناجاة «مرتضاه» الحبيب. فإذا كان لله عينٌ ويَدٌ[1] فلماذا لا يكون له قلب أيضًا؟! على أنّ عين الله ويده وقلبه ليست كتلك التي لدينا. فهذه الأشياء، لدى الحديث عن الله عزّ وجلّ، لا تعني الحواسّ الظاهريّة، بل شيء آخر.

١- إشارة إلى ما جاء في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة من تعابير «عين الله» «ويد الله»: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ (سورة الفتح، الآية ١٠). وعن أبي جعفر عليه السلام: «نَحنُ عَينُ اللهِ في خَلقِهِ وَيَدُهُ المَبسوطَةُ بِالرَّحمَةِ» (الكافي، ج١، ص١٤٣).

والأعجب أنّ الشيخ مرتضى زاهد كان يقول: «كنت أُصغي جيّدًا فإذا بالصوت في بعض الليالي يناديني: «آغا مرتضى»[1]، وفي ليالٍ أخرى: «مرتضى» فقط».
فتساءلتُ مع نفسي: لماذا يحترمونني بعض الشيء أحيانًا فينادونني «بآغا»، ولا يعيرونني كثير اهتمام أحيانًا أخرى فيكتفون «بمرتضى»؟ وعند تقصّي الأمر وجدتُ أنّني في الأيّام التي كنت أتحرّى فيها دقّة أكبر في سلوكي وأفعالي وأراقب نفسي أكثر، كانوا ينادونني «آغا مرتضى»، أمّا في الأيّام التي لا أُشدّد فيها على مراقبة نفسي فكان النداء يأتيني: «مرتضى»[2].

١- تُستعمل «آغا» في الفارسيّة للاحترام والتوقير وتعني «السيّد».
٢- يقول حفيد الشيخ مرتضى زاهد: «يروي المرحوم الشيخ بنفسه فيقول: إنّني أُنادَىٰ في جوف الليل لأداء عبادات السحر. فليلةً ينادونني: «مرتضى، انهض»، وليلةً يأتيني النداء: «يا شيخ مرتضى»، وأخرى ينادونني: «آغا شيخ مرتضى». وعندما كنتُ أُمعن النظر أجد لذلك صلةً بيومي؛ ففي اليوم الذي كنت أتوخّى دقّة أكبر في تصرّفاتي وأعمالي واهتمامًا أعظم بها كنتُ أواجه احترامًا أشدّ في إيقاظي». (المصدر: الموقع الالكتروني لآية الله جاودان، حفيد الشيخ مرتضى جاودان المشهور بزاهد: .(http://javedan.ir

فـالله تعالى يشـغل بعـض النـاس ويلهيهم إلـى درجة أنّهـم لا يجـدون الوقـت والفرصـة لـدقّ بـاب ربّهـم ومناجاتـه، فـي حيـن أنّه عـزّ وجـلّ يولَع بحـبّ بعضهم حتّـى أنّـه يناديهـم بنفسـه ليأتـوا إلـى بابـه. فمـا الفارق بيـن الفريقين؟

الفـارق يكمـن في مـا يستشـعرونه فـي قلوبهـم تجاه الله تعالـى مـن العظمـة والهيبـة، ومـا يقيمونـه لـه مـن الوزن.

وهـذا أميـر المؤمنيـن عليـه السـلام يقـول فـي المتّقيـن: «**عَظُـمَ الخالِـقُ فـي أَنفُسِـهِمْ فَصَغُـرَ مـا دونَـهُ فـي أَعيُنِهِـم**»[1].

القرآن وغرس جلال الله في القلب

إنّ مـن أهـمّ مـا تصنعـه آيـات الذكـر الحكيـم بنا هو أنّهـا تلقـي جـلال الله تعالـى فـي أنفسـنا. فـالله ـ علـى

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

سبيل المثال ـ يقول في سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[1]. فلو استولَت عظمة هاتين الآيتين في قلبك فإنّ عينيكَ ستُسلَبان النومَ في السحر.

الصلاة إلقاءٌ لعظمة الله وكبريائه في النفس

إنّ أهمّ صفة من صفات الله جلّ وعلا التي يتعيّن أن تستقرّ في قلوبنا، فنعتاد عليها، ونستشعرها من أعماق أنفسنا، هي عظمة الله وكبرياؤه. فإذا اهتمَمنا بالأمر لمدّة من الزمن فأدّينا صلواتنا على نحو صحيح وراعينا أحكامها وآدابها بشكل أفضل فستقع ـ بالتدريج ـ عظمة الله جلّ شأنه في قلوبنا.

لكن لماذا ينبغي لعظمة الله أن تقع في قلوبنا؟

التكبّر يعيق الاتّصال الصحيح بالله

الجواب: لأنّ أكبر عائق أمام الإنسان في تكوين علاقة مع ربّه هو ما يحمله من تصوّر خاطئ عن

١- سورة الزلزلة، الآيتان ٧ و٨.

نفسه بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ، التصوّر الذي أساسه التكبّر والغرور. فنحن في العادة لا نحسّ بما ينبغي أن نحسّ به من ضآلتنا وحقارتنا أمام الله سبحانه. وكُلّما اغترّ الإنسان بنفسه ورآها عظيمة، ولم يستشعر صِغَره في مقابل ربّه، ولم يدرك عظمة بارئه فإنّ جميع مساعيه لمدّ حبال الوصال بالله ستبوء بالفشل ولا تُثمر جهوده عن أيّ علاقة مؤثّرة به عزّ وجلّ؛ فلا محبّةَ يتم تبادلها، ولا دعاءَ يتم رفعه، ولا شيءَ يتم تسلّمه.

الثمرة البسيطة، لكن المهمّة للغاية، للصلاة هي مَحْق هذا المانع، ألا وهو التكبّر[1]. فلقد نُظِّمَت الأحكام الواجبة للصلاة بحيث إنّها توحي للمرء ـ بتكرارها بضع مّرات كلّ يوم ـ مفهومَين جوهريَّين

١- تقول الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها الشهيرة: «**فَفَرَضَ اللهُ... الصَّلاةَ تَنزيهًا عَنِ الكِبْرِ**» (من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٥٦٨).

هما «كِبَر الله وعظمته» و«صِغَر الإنسان وحقارته أمام ربّه».

فالذِّكر الذي هو محور الصلاة هو «الله أكبر». كما أنّ الأذكار الأخرى التي تجري على لسان المصلّي في بقّية أجزاء الصلاة تنبّه هي الأخرى إلى عظمة الباري تعالى وعلُوّه. ففي ذِكر «سبحان ربّي العظيم وبحمده» جاء الحديث مرّتين عن عظمة الله. وفي ذِكر «سبحان ربّي الأعلى وبحمده» وَرَد الكلام مرّتين أيضًا عن علُوّ الله وأُبّهته. وإنّ في الصلاة سجودًا وركوعًا معًا، وهما أسمَى رموز التعظيم، حتّى لَيبدو وكأنّه لا مهمّة للصلاة إلا ضخّ صفة كبرياء الله عزّ وجلّ في قلب الإنسان.

وقد كتب الإمام عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام جوابًا إلى أحد أصحابه حين سأله عن علّة الصلاة: **«أَنَّهَا إِقْرارٌ بِالرُّبوبِيَّةِ لله عَزَّ وَجَلَّ، وَخَلْعُ الأَنْدادِ، وَقِيامٌ بَينَ يَدَيِ الجَبّارِ جَلَّ جَلالُهُ**

بِالــذُّلِّ وَالمسْــكَنَةِ وَالخُضُــوعِ وَالاعتِــرافِ، وَالطَّلَــبُ لِلإقالَــةِ مِــنْ سَــالِفِ الذُّنُــوبِ، وَوَضْــعُ الوَجْــهِ عَلَــى الأَرضِ كُلَّ يَــومٍ خمــسَ مَــرَّاتٍ إعظامًــا للهِ عَــزَّ وَجَــلَّ، وَأَن يَكــونَ ذاكِــرًا غيــرَ نــاسٍ ولا بَطِــرٍ، وَ يَكُــونَ خَاشِــعًا مُتَذَلِّــلًا رَاغِبًــا طَالِبًــا لِلزِّيَــادَةِ فِــي الدِّيــنِ وَالدُّنيــا مَــعَ مــا فِيــهِ مِــنَ الانزِجــارِ وَالمُداوَمَــةِ عَلــى ذِكــرِ اللهِ عَــزَّ وَجَــلَّ بِاللَّيــلِ وَالنَّهــارِ لِئَــلاّ يَنسَــى العَبــدُ سَــيِّدَهُ وَمُدَبِّــرَهُ وَخَالِقَــهُ فَيَبْطَــرَ وَيَطْغَــى وَيَكُــونَ فِــي ذِكْــرِهِ لِرَبِّــهِ وَقِيَامِــهِ بَيْــنَ يَدَيْــهِ زَاجِــرًا لَــهُ عَــنِ المَعَاصِــي وَمَانِعًــا مِــنْ أَنْــوَاعِ الْفَسَــادِ»[1].

فــإنّ مــن المقــرّر أن نحســب لله ألــف حســاب، وإنّ الممهّــد لذلــك هــو الالتــزام بأحــكام الصــلاة وآدابهــا بحذافيرهــا. فــإذا اهتممنــا بذلــك وتنبّهنــا لــه أثنــاء الصــلاة فستســتقرّ عظمــة الله في قلوبنا شــيئًا فشــيئًا، وما

١- علل الشرائع، ج٢، ص٣١٧.

إن تستقرّ عظمة الله تعالى في أنفسنا حتّى تتفجّر في الأخيرة ينابيع محبّته.

أثر السجود في إيداع عظمة الله في القلب

إذا أحببنا أن يكون للصلاة أثرٌ أكبر في كياننا، فمضافًا إلى المواظبة على أحكامها وآدابها من أوّلها إلى آخرها، فإنّ ذلك الجزء من الصلاة الذي يتعيّن علينا إطالته وأداؤه بإقبال أشدّ هو «السجود». فإنّ لطول السجود المصحوب بالالتفات والإقبال عظيمَ الأثر في سحق كبريائنا واستقرار عظمة الباري عزّ وجلّ وكبريائه في نفوسنا.

تصوير عرفانيّ جميل للسجود

لمّا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كَم في سجدة الصلاة من آثار وبركات لا توصف وكم أنّ عبادَه قريبون منه فيها[1]، فقد أوجب عليهم في كلّ ركعة

١- قال الصادق عليه السلام: «أَقرَبُ ما يَكونُ العَبدُ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ ساجِد» (من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٩).

سجدتين. فمنذ أن تشرعَ في صلاتك بقول «الله أكبر» فليكُن ولعُك ـ يا صاحبي ـ بلحظات السجود تلك. قل مخاطبًا ربك: «حبيبي.. سأركع الآن، ومن ثمّ أهوي إلى السجود». ولتكن إذا رفعتَ رأسك من السجدة الأولى كالذي يوشك فؤاده أن ينخلع من صدره، حتّى يناديك الربّ: «مهلًا يا عزيزي، اسجُد ثانيةً». ولتكن إذا شئت رفْعَ رأسك من السجدة الثانية كمن يحاولون كتم أنفاسَه. إلى هذا الحدّ عليك أن تهيم بالسجود.

فإذا بك عاجز عن القيام بعد السجدة الثانية. وهناك تخاطب ربّك: «إلهي، إنّي لأكره رفع رأسي من السجود عند بابك»، فيأتيك الجواب: «هاتِ يدك يا حبيبي. أدري أنّك لم تَعُد قادرًا على ذلك. أَعلم أنّك ما عُدتَ تحبّ أن ترفع جبهتك من على التراب عند بابي. أعرف كم

أنت تعشق السجود. تعالَ أُساعدك بنفسي»!
ولهذا أنت تقول لدى قيامك: «بحول الله وقوّته
أقوم وأقعد».

أطل سجودك

ومن أجل هذا الأثر الخارق للسجدة تحديدًا فإنّ في ميسورنا تكرار ذكر السجود ثلاث مرّات أو أكثر. فاعمل جاهدًا كي تكون سجداتك أطول[1]. لا تقل: «فَلأُنْهِ صلاتي بسرعة لأتفرّغ لعملي الفلاني». ولا تقل: «فلأتوجّه إلى دُكّاني، فقد تأخّرت، وسأفرّط بزبائني». لا تقلق.. أطِل سجودك قليلًا، وسيأتي الزبون الذي ينبغي أن يعطيك واسع الرزق، سيأتي متأخّرًا بضع دقائق، فإنّ الأمور كلّها بيد الله تعالى.

١- يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إنَّ العَبدَ إذا أطالَ السُّجودَ حَيثُ لا يَراهُ أَحَدٌ قال الشَّيطانُ وَا وَيلاه، أطاعُوا وعصَيتُ وسَجَدُوا وَ أَبَيتُ» (ثواب الأعمال، ص٣٤).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ العَبدَ إِذا عَجَّلَ فَقامَ لِحاجَتِهِ يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى: أَما يَعلَمُ عَبدي أَنّي أَنا اللهُ الَّذي أَقضِي الحَوائِجَ**»[1].

ومن أجل التعرّف أكثر قليلًا على الآثار الإعجازية التي في السجدة تعال واستمع إلى هذه القصّة الجميلة التي حصلت مع رسول الله صلى الله عليه وآله:

الإكثار من السجود ومجالسة رسول الله

كان هنالك رجل عجوز يُدعى ربيعة وكان قد خدم رسول الله صلى الله عليه وآله سبع سنين. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم: «**يا ربيعة، خَدَمتَني سبع سنين، أفلا تسألُني حاجة**»؟ فقال ربيعة: «يا رسول الله، أمهِلني حتّى أفكّر». فلمّا أصبح في اليوم التالي دخل على النبيّ، فقال له صلى الله عليه وآله:

١- الكافي، ج٢، ص٤٧٤.

ـ **«هل فكّرْت»**؟

ـ «نعم يا رسول الله. لقد فكّرت. إنّ لي عندك حاجة».

ـ **«هات حاجتك [وسأقضيها لك]»**.

ـ «بنفسي أنت يا رسول الله. أريد أن تسأل الله عزّ وجلّ أن يُدخلني معك الجنّة».

ـ **«مَن علّمك هذا»**؟

ـ «يا رسول اللهِ، ما علّمني أحد، لكنّي فكّرت في نفسي وقلت: ما من شيء أسألك إيّاه إلا ويزول؛ فإن سألتُك مالًا فسينفذ وينضب، وإن سألتُك عمرًا طويلًا وأولادًا كانت عاقبتهم الموت. فلا بدّ في النهاية أن تأتي تلك اللحظة التي تبدأ بعدها الحياة الأبديّة. فأين سنكون نحن وأين ستكون أنت حينذاك! إنّك ستكون في أعلى مرتبة من رضوان

الله تعالى. فإن كنتُ هناك في جوارك فلن تكون لي حاجة إلى شيء قَطّ».

فنكَس رسول الله صلى الله عليه وآله رأسَه ساعة، ثمّ نظر إليه وقال: «**أَفعَل ذلك [بشرط أن تساعدني لأفي بوعدي هذا]**». كيف؟ قال: «**فأَعِنّي بكثرة السجود**»[1]؛ أي: إنّ من حقّك عليّ أن أرفعَك إلى ذاك المقام. لكن من أجل أن أسمو بك إلى العُلى، أريدك أن تعِدني بشيء واحد: «أكثِر من السجود».

هل أدركت الآن ـ يا صديقي ـ قيمة السجود؟ والآن في وسعك أن تقول: «إلهي، إنني لممتَنّ لك حقًّا على هذه الصلاة التي أهديتها لنا. الصلاة التي جعَلتَ في كلّ ركعة منها سجدتين».

١- الدعوات للراوندي، ص٣٩ (بتصرّف).

السجدة تمرين على التضاؤل أمام الله

السـجدة رائعـة إلـى أبعـد الحـدود. فالإنسـان حـال السـجود يتمـرّن علـى منتهـى التضـاؤل والتصاغـر فـي حضـرة الله سـبحانه وتعالـى.

هذا التمرين بالطبع لا يكون له في بداية الأمر ذلك الأثر العظيم في القلب. لكنّني إن واظبتُ على هذا العمل فترةً من الزمن على أتمّ وجهه فإنّ الله ـ الذي يعلم خلوّ قلبي من العشق والعرفان وما إلى هذه الأمور ـ سيرى كيف أنّني أضغط على نفسي، فأقول: «سبحان ربّي الأعلى وبحمده»، ثمّ أعيدها ثانيةً: «سبحان ربّي الأعلى وبحمده»، رغم أنّ قلبي يقول لي: «كفاك هذا، انهض». لكنّني حينما أكرّرها أكون أزعجتُ نفسي. هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإنّ الله ينظر إليّ ويراقبني.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو يعلم المصلّي ما يغشاه من الرّحمة لما رفع رأسه من السّجود**»[1].

١- غرر الحكم ودرر الكلم، ص٥٦٨.

ويُروى أنّ سجدة الإمام الكاظم عليه السلام الواحدة كانت تمتدّ أحيانًا حتّى طلوع الصبح[1]. والله أعلم أنه لو أتيح لأهل التقوى المجال فما الذي كانوا ليصنعوا على باب الله عزّ وجلّ[2].

١- «كان موسى بن جعفر عليه السلام يُدعى العبد الصالح من عبادته واجتهاده. رَوى أصحابُنا أنّه دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فسجد سجدةً في أوّل الليل، وسُمع وهو يقول في سجوده: «عظيمٌ الذنبُ عندي فليَحسُن العفوُ عندك. يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة». فجعل يُردّدها حتّى أصبَح» (ميزان الحكمة، الحديث ١١٧٢، نقلًا عن تاريخ بغداد، ج١٣، ص٢٩).

٢- عن أحمد بن عبد الله الفَرْويّ [الغَرَويّ] عن أبيه قال: دخلتُ عَلَى الفَضلِ بنِ الرَّبِيعِ [حارس سجن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في عهد هارون الرشيد عليه لعائن الله] وهُوَ جَالِسٌ عَلَى سَطْحٍ فَقَالَ لِي: ادْنُ. فَدَنَوْتُ حَتَّى حَاذَيْتُهُ. ثُمَّ قَالَ لِي: أَشْرِفْ إِلَى الْبَيْتِ فِي الدَّارِ. فَأَشْرَفْتُ، فَقَالَ: مَا تَرَى فِي الْبَيْتِ؟ قُلْتُ: ثَوْبًا مَطْرُوحًا. فَقَالَ: انْظُرْ حَسَنًا. فَتَأَمَّلْتُ وَنَظَرْتُ فَتَيَقَّنْتُ فَقُلْتُ: رَجُلٌ سَاجِدٌ. فَقَالَ لِي تَعْرِفُهُ؟ قُلْتُ لا... فَقَالَ: هَذَا أَبُو الْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام. إِنِّي أَتَفَقَّدُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَلَمْ أَجِدْهُ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ إِلَّا عَلَى الْحَالِ الَّتِي أُخْبِرُكَ بِهَا. إِنَّهُ يُصَلِّي الْفَجْرَ فَيُعَقِّبُ سَاعَةً فِي دُبُرِ صَلاتِهِ إِلَى أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَةً فَلا يَزَالُ سَاجِدًا حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ، وقَدْ وَكَّلَ مَنْ يَتَرَصَّدُ الزَّوَالَ فَلَسْتُ أَدْرِي مَتَى يَقُولُ الْغُلامُ قَدْ زَالَتِ

وحتّى الشخص الذي لم ينَل إلى الآن كَمًّا وافيًا من الحبّ والمعرفة يستطيع، بما يملكه من عِلم وشعور، أن يُجبر نفسه على السجود على باب الله جلّ وعلا. وليقل مخاطبًا نفسَه: «مهما تواضعتَ بين يدي الله تبارك وتعالى وتخضَّعتَ على بابه فهو جيد، ولا عيب في ذلك». بل من الممكن كذلك أن يغفو حال سجوده، ولا إشكال في هذا أيضًا. إذ سيقول الله جلّ جلاله لملائكته: «انظروا إلى عبدي. صحيح

الشَّمْسُ إِذْ يَثِبُ فَيَبْتَدِئُ بِالصَّلاةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُجَدِّدَ وَضُوءًا فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَنَمْ فِي سُجُودِهِ وَلا أَغْفَى. فَلا يَزَالُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلاةِ الْعَصْرِ. فَإِذَا صَلَّى الْعَصْرَ سَجَدَ سَجْدَةً فَلا يَزَالُ سَاجِدًا إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ. فَإِذَا غَابَتِ الشَّمْسُ وَثَبَ مِنْ سَجْدَتِهِ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحْدِثَ حَدَثًا وَلا يَزَالُ فِي صَلاتِهِ و تَعْقِيبِهِ إِلَى أَنْ يُصَلِّيَ الْعَتَمَةَ. فَإِذَا صَلَّى الْعَتَمَةَ أَفْطَرَ عَلَى شَوِيٍّ يُؤْتَى بِهِ. ثُمَّ يُجَدِّدُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَسْجُدُ ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ فَيَنَامُ نَوْمَةً خَفِيفَةً ثُمَّ يَقُومُ فَيُجَدِّدُ الْوُضُوءَ ثُمَّ يَقُومُ فَلا يَزَالُ يُصَلِّي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ. فَلَسْتُ أَدْرِي مَتَى يَقُولُ الْغُلامُ إِنَّ الْفَجْرَ قَدْ طَلَعَ إِذْ قَدْ وَثَبَ هُوَ لِصَلاةِ الْفَجْرِ. فَهَذَا دَأْبُهُ مُنْذُ حُوِّلَ إِلَيَّ» (الأمالي للصدوق، ص١٤٦ ١٤٧).

أنّـه مبتـدئ، لكـن كـم هـو يضحّـي مـن أجلـي»[1]. فإنّ كلّ مَـن خصّـص شـيئًا مـن وقته فأتعـب نفسـه قليلًا في هـذه الطريـق فـإن الله سـيوليه مـن العناية ما لـم يتصوّره ولـم يخطـر لـه ببال.

١- عـن رَسُـولِ اللّٰه صلـى اللّٰه عليـه وآلـه: «إِنَّ رَبَّـكَ يُبَاهِـي المَلائِكَـةَ بِثَلاثَـةِ نَفَـرٍ: رَجُلٍ... وَرَجُلٍ قَامَ مِـنَ اللَّيْـلِ يُصَلِّـي وَحْـدَهُ فَسَـجَدَ وَنَـامَ وَهُـوَ سَـاجِدٌ، فَيَقُـولُ اللّٰهُ تَعَالَـى: انْظُـرُوا إِلَـى عَبْـدِي، رُوحُـهُ عِنْـدِي وَجَسَـدُهُ فِـي طَاعَتِـي سَـاجِد..» (وسـائل الشـيعة، ج٥، ص٢٩٦ ٢٩٧).

المرحلة الأولى
الصلاة بأدب

الفصل الثالث

الخطوة الأولى: مراعاة الأدب

الصلاة تأدّبٌ بين يدَي الله

كما سبق أن قلنا فإنّ الصلاة ـ قبل كلّ شيء ـ طاعةٌ لأمر الله تعالى، وإنّ الخطوة الأولى على طريق طاعة الله هي أن تستقرّ عظمتُه في قلوبنا.

لكن ماذا نصنع كي تتمكّن عظمة الله وجلاله من قلوبنا؟

السبيل إلى ذلك هو أن نلزم الأدب مع الله عزّ وجلّ، وأهمّ موضع لذلك هو أثناء الصلاة.

فالصلاة ـ في واقع الأمر ـ هي تأدُّبٌ في حضرة إله العالمين. والأدب هو أول ما يتعين على العبد التمرّس عليه وتعلّمه عند مواجهته لمولاه. وبهذه الصورة يبيّن إمامنا زين العابدين عليه السلام ضرورة حفظ الأدب في الصلاة: **«وَحَقُّ الصَّلاةِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّهَا وِفَادَةٌ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَ فِيهَا قَائِمٌ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا عَلِمْتَ ذَلِكَ قُمْتَ مَقَامَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ الحَقِيرِ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ الرَّاجِي الخَائِفِ المُسْتَكِينِ المُتَضَرِّعِ المُعَظِّمِ لِمَنْ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالسُّكُونِ وَالْوَقَارِ»**[١].

أداء الصلاة على نحو حَسَن أمر بسيط للغاية. فلتحاول لمدّة من الزمن أن تراعي الأدب أثناء الصلاة وسترى أيّ حُبّ سيلقيه الله بالتدريج في قلبك. فلتلزم الأدب فترة من الوقت في حضرة الربّ وسيهبك ـ شيئًا فشيئًا ـ معرفةً لا توصف. تعلّم

١- من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١٩.

الصلاة بتأدّب الآن لتتوفّق ـ إن شاء الله ـ إلى الصلاة عن عرفان وعشق فيما بعد.

الصلاة الحَسَنة بالنسبة لنا هي الصلاة بأدب

ليس من الهيّن أنْ يتغيّر لون وجه المرء من خشية الله تعالى إذا وقف ببابه. فبسبب المسافة التي تفصلنا عن الله عزّ وجلّ فإنّ أقصى ما يسعنا لمسُه هو أن نشعر بالاشتياق إليه في بعض الأحيان فحسب. فالخشية من حضرة الحق تعالى هي سجيّة العارفين، والتفكير في صلاة أمير المؤمنين عليه السلام يُفقد المرءَ الأملَ في أن يصلّي عن حُب. فمن أجل أن نبدأ في أداء صلاة جيّدة ونتعلّمها علينا، أوّلًا، أن ننظر إلى الخطوة التي نستطيع خطوها وما هو مداها، على أن ننظر، بين الحين والآخر، إلى أعلى القمة. فإن أراد أمثالُنا أن يتقدّموا بصلاتهم خطوة إلى الأمام، فأول خطوة عليهم اتخاذها هي الصلاة بأدب.

لكن ما معنى الصلاة بأدب؟

الصلاة بأدب هي أن تخاطب الله وأنت تصلي:

«إلهي، سواء أكان لدي إقبال أم لا، وسواء أكنتُ أحبّك أم لا، وسواء أكنتُ أخافك أم لا، وسواء أكنتُ أقوى على الصلاة أم لا، فإنّ من واجبي أن أُراعي الأدب على أية حال».

تعريف التأدّب بين يدي الله

سُئل إمامنا الجواد عليه السلام عن ما هو فضل المرء وتأدّبه عند الله تعالى فقال: «**بِقِرَاءَةِ الْقُرآنِ كَما أُنزِل**»[1]. وإنّ باقي أجزاء الصلاة تأتي في إثر تلاوة القرآن كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا، يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا... فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِم**»[2]؛ أي يركعون ومن ثم ينحنون ساجدين.

١- إرشاد القلوب، ج١، ص١٦٠.

٢- نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣ المعروفة بخطبة همام أو المتّقين.

فالصلاة تذلُّلٌ على باب ربّ العزّة تعالى. فلا ينبغي القول في المراحل المبتدئة: إن الصلاة مغازلة مع الله. فهذا الكلام مبكّر بالنسبة إلينا. فأنا أخشى أن لا ترى في نفسك أحيانًا إقبالًا على الغزل مع الله فتُهين صلاتك، في حين أن أدب الصلاة هو غاية في الأهمّية.

الالتزام بأحكام الصلاة أوّل شروط الأدب

الصلاة ـ في الدرجة الأولى ـ ليست غزلًا، بل رعاية للأدب. وأول خطوة في طريق التأدّب هي التقيّد بأحكام الصلاة.

التفت جيّدًا إلى المسائل القليلة التالية في أحكام الصلاة:

بعض أحكام الصلاة

ـ الضحك بقهقهة حال الصلاة هو من مبطلات الصلاة[1].

١- خامسها [من مبطلات الصلاة]: القهقهة ولو اضطرارًا. نعم لا بأس بالسهويّة، كما لا بأس بالتبسّم ولو عمدًا. والقهقهة: هي الضحك المشتمل على الصوت والترجيع (تحرير الوسيلة للإمام الخميني رضوان الله عليه، ص١٤٩).

ـ الحـركات الزائدة حال الذكر يبطل الصلاة[1].

ـ يُكـره حَـكّ البـدن[2]، بـل ـ عمومًـا ـ كل حركـة زائـدة[3]، أثنـاء الصـلاة.

إذًا لا بـد حيـن الصـلاة مـن اجتنـاب كل عمـل فيـه مثقـال ذرّة من إسـاءة الأدب تجـاه رب العالمين. يُروى عـن الشـيخ رجـب علـي الخيـاط[4] أنـه قـال: «رأيـت

١- القول في الركوع، مسألة ٨: يجب الطمأنينة حال الذكر الواجب، فإن تركها عمدًا بطلت صلاته، بخلافه سهوًا؛ وإن كان الأحوط الاستئناف معه أيضًا. ولو شرع في الذكر الواجب عامدًا قبل الوصول إلى حدّ الركوع، أو بعده قبل الطمأنينة، أو أتمّه حال الرفع قبل الخروج عن اسمه أو بعده، لم يجز الذكر المزبور قطعًا. والأقوى بطلان صلاته، والأحوط إتمامها ثمّ استئنافها، بل الأحوط ذلك في الذكر المندوب أيضًا لو جاء به كذلك بقصد الخصوصيّة، وإلّا فلا إشكال (تحرير الوسيلة للإمام الخميني رضوان الله عليه، ص١٣٧).

٢- عـن الإمـام الرضـا عليـه السـلام: «فَـإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُـومَ إِلَـى الصَّـلاةِ فَـلا.. وَلا تَحُـكَّ بَدَنَـك..» (فقـه الرضـا عليه السـلام، ص١٠١).

٣- «مسـألة ١١٥٧: يكـره حـال الصـلاة الالتفـات اليسير بالوجـه يمينا وشـمالا.. وإجالـة العينيـن يمينـا وشـمالا، أو العبث باللحية أو اليـد، أو ضم أصابع اليد إلـى أصابـع الأخـرى... بـل يكره كل ما يفسـد الخضوع والخشـوع فـي الصلاة. مسـألة ١١٥٨: تكـره الصـلاة حـال النعاس ومدافعـة البول والغائـط» (توضيح المسـائل للإمـام الخمينـي رضوان الله عليه، ص١٨٢/ بالفارسـية).

٤- هـو مـن مشـاهير العرفـاء. وقـد توفـي سـنة ١٩٦١م فـي مدينـة شـهر ري

المرحلة الأولى: الصلاة بأدب

الشيطان يُقبّل الموضع الذي يحكّه المصلّي أثناء صلاته»[1].

الصلاة بأدب لا تحتاج إلّا قليلًا من المعرفة

صحيح أن المحبة لا تأتي بالإكراه، لكنّ الأدب يأتي بالقوّة. فالأدب أثناء الصلاة إجباري، وله أحكام. وإن التأدّب في الصلاة هو من الأهمية بحيث إنه يشكّل محورًا مهمًا للكثير من أحكامها. فالمرء يراعي الأدب مع الآخرين حتى وإن لم يحبّهم. فالتزام الأدب ليس بالأمر الشاق.

إذًا فلتُصَلِّ صلاتك بأدب. وهل تحتاج الصلاة بأدب إلى إقبالٍ وخشوع؟ كلا. كل ما تحتاجه هو قليل جدًا من المعرفة، والجميع ـ والحمد لله ـ يملكون أزيد من ذلك.

بإيران. كان رجب علي الخياط حتى آخر عمره يمتهن الخياطة. يُنقل أنه حظي بتوفيقات معنويّة جمّة إثر تورّعه في سنيّ شبابه عن ارتكاب معصية. وكان متشرّعًا شديد الالتزام بأحكام الشريعة. وقد ألّف آية الله الري شهري في سيرته، وأقواله، وحكاياته كتابًا تحت عنوان: «كيمياء المحبّة» (وهو مترجَم إلى اللغة العربيّة).

١- كيمياء المحبّة، ص٢١٩ (حسب النسخة الفارسيّة).

تجلّي الأدب في الأحكام المتصلة بحالة العينين في الصلاة

لماذا تراهم يتشدّدون كل هذا التشدد في أحكام الصلاة؟ لِمَ قالوا، مثلًا: «فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُومَ إِلَى الصَّلاةِ.. وَلا تَلْتَفِتْ يَمِينًا وَشِمَالًا»(١). لماذا كل هذه الأحكام الصارمة؟ أليس لأنّ الأدب هو أول ما يطالبنا الله تعالى به في الصلاة؟

قالوا مثلًا: أثناء قيامك في الصلاة ليكن نظرُك إلى محل سجودك. لكنك إذا نظرت إلى المحل نفسه عند الركوع فستضطر إلى رفع جفنيك، وفي ذلك إساءةُ أدب، فالمرء بين يدي الله لا يرفع عينيه إلى هذا الحد. فإلى أين يتعيَّن عليك أن تنظر في تلك الحالة إذًا؟ عليك أن تنظر إلى ما بين رجليك(٢).

وإلى أين ينبغي أن توجّه بصرك عند التشهّد؟ فإنك

١- فقه الرضا عليه السلام، ص١٠١.

٢- عن الإمام الرضا عليه السلام: «وَيَكُونُ نَظَرُكَ فِي وَقْتِ الْقِرَاءَةِ إِلَى مَوْضِعِ سُجُودِكَ، وَفِي وَقْتِ الرُّكُوعِ بَيْنَ رِجْلَيْكَ» (فقه الرضا عليه السلام، ص١٠٦).

إنْ وجّهتَه إلى التربة (محلّ السجود)، انفرجَت زاوية نظرك وارتفع جفنا عينيك، واعتُبر ذلك من إساءة الأدب. لذا عليك حال التشهّد أن تنظر إلى حجرك[1].

هذه جملةٌ من أحكام الصلاة ومستحباتها ومكروهاتها.

المجاهد الذي كان يسجد بحال معنوي لكن بشكل خاطئ!

رافقتُ أيام الجبهة أحدَ المجاهدين لفترة من الزمن. وكان إذا سجد يقلّص جسده بحيث لا يبقى بين التربة وركبتيه أكثر من الشِّبْر، ويضَع ظَهر قدميه على الأرض بدلًا من إبهامهما. والصلاة بهذه الطريقة باطلة، إذ من الواجب أن تكون المسافة الفاصلة بين التربة والركبتين بمقدارٍ يكفي لتستقر الركبتان على الأرض بشكل جيد ويتم الارتكاز عليهما، كما يجب وضع إبهامَي القدمين على الأرض بدلًا من ظهر القدم[2]. وكان يقرأ في سجوده

١- «وَيَكُونُ نَظَرُكَ فِي وَقْتِ السُّجُودِ إِلَى أَنْفِكَ، وَبَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ فِي حَجْرِكَ وَكَذَلِكَ فِي وَقْتِ التَّشَهُّد» (فقه الرضا عليه السلام، ص١٠٦).

٢- القول في السجود:..السجود على ستّة أعضاء: الكفّين والرُّكبتين والإبهامين.

بصوت ممدود خاصّ: «سُبان رَبّي العَلَى وبحمده». بالطبع كان غارقًا في عالمه الخاصّ، وكان يقرأ بنبرة جميلة وصوت شجيّ، أما تلفّظه فكان خاطئًا؛ فعوضًا عن قوله: «أعلى» كان يقول: «عَلى»، وبدلًا من قول: «سبحان» كان يقول: «سُبان».

وكان ثمة صراع يثور حينذاك في داخلي: «إلهي، ما عساي أن أفعل؟ هل أنبّهه على خطئه، أو أتركه وشأنه؟ هل أسكت عن عيب صديقي كي لا تُمَسّ صداقتُنا بسوء، أو أنبّهه كي يصلح خطأه»؟ حتى اتخذت قراري في نهاية الأمر وقلت في ذات نفسي: دعني أصارحه بخطئه.

وأمّا الركبتان فيجب صدق مسمّى السجود على ظاهرهما وإن لم يستوعبه.. (مسألة ٢): الأحوط الاعتماد على الأعضاء السبعة، فلا يجزي مجرّد المماسّة (تحرير الوسيلة للإمام الخميني رضوان الله عليه، ص١٣٨). يجب عند السجود على الأحوط وجوبًا وضع طرف إبهامَي القدمين على الأرض، فإن وضع أصابع القدم الأخرى، أو ظاهرها، أو لم يلامس طرف الإبهام الأرضَ بسبب طول ظفره، بطُلت صلاته (توضيح المسائل للإمام الخميني رضوان الله عليه، مسألة ١٠٦٢/ بالفارسية).

قلت له: «لماذا تقلص جسدك عند السجود؟ ولِمَ تئنّ كل هذا الأنين؟ أنينك شجيّ، صحيح، لكن قراءتك خاطئة».

ـ فقال: «إنني هكذا أستأنس مع الله أكثر».

ـ «تخطئ يا صديقي إذ تريد الاستئناس مع الله! فلو شاء الله لعرف كيف يجعل أحكام الصلاة أكثر يُسرًا كي نكون أحرارًا ونستمتع معه بكل سهولة. فهل تظنّ أن الله غير مُدرك لذلك عندما وضَع أحكام الصلاة بهذه الصرامة»؟!

الأدب مقدَّم على المحبّة والغزل

من الخطأ أن نقول لوَلَدنا بحجة ترغيبه في الصلاة: «تعال يا عزيزي واستمتع بالصلاة. ولا تهتمّ ولا تُلقِ بالًا إن لم تسجد. أمّا إذا وجدتَ في نفسك الرغبة فاسجد ثلاثًا، فلا إشكال في ذلك»! بل علينا أن نخبره بأن أوّل شروط التأدّب بين يدي الله عز وجل هو مراعاة أحكام الصلاة، وأن الأدب مقدَّم على المحبة والمغازلة.

فهل تبطل صلاتنا إن لم نَبكِ فيها ولم نسفح الدموع، أم إنها تبطل إذا صلّيناها خطأً؟ أيّ الأمرين يُبطل الصلاة؟ من الطبيعي أنّ أداء الصلاة بشكل خاطئ هو الذي يبطلها. إذًا فالأصل في الصلاة هو عدم الإتيان بها بشكل خاطئ، وليس البكاء وذرف الدموع.

لا تصبحَنّ أصدقاء حميمين لله بسرعة

ـ «أيّها الشيخ، ذات مرة كنتُ أُصلّي الصبح. ما أروعها من صلاة، فلقد غُصتُ حينها في حال من المتعة والأنس. لكنني شككت أثناءها فيما لو كنتُ في الركعة الأولى أو الثانية، فأتيتُ بركعة إضافية لأُحكِمها»!

ـ «إن مجرّد شكّك فيما لو كنت في الركعة الأولى أو الثانية يُبطل الصلاة، وعليك أن تعيدها ثانية».

ـ «لكنّها كانت صلاة تغصّ بالروحانية»!

ـ «ما أسرع ما تصبح صديقًا حميمًا لله يا هذا! إنك تفتح ذراعيك وتقول له: «أودّ أن أرتمي في أحضانك»! فلتراعِ أدب الصلاة. إنه الله يا هذا وليس ابن خالتك»!

فيا ترى كَم خصّص كلّ واحد منّا من الوقت لإتقان قراءته في الصلاة بلغة عربية فصيحة؟

ـ «يا شيخنا، ولماذا يجب علينا أساسًا أن نصلّي بلغة عربية فصيحة تمامًا»؟

ـ «عذرًا، ولكن هلاّ قلتَ لي لماذا يتحتم عليك أن تأتي في كل ركعة صلاة بركوع واحد وسجدتين؟ فما يضيرك لو صلّيتَ بركوعين وسجدة واحدة»!

ـ «لأن الله هو الذي حدّد هذه الأمور».

ـ «طيّب، وذاك أيضًا حدّده الله تعالى، إذ قد أمر بالصلاة بلسان عربيّ فصيح».

يقول الإمام الباقر عليه السلام: **«إِنَّمَا الْوُضُوءُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللهِ لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يُطِيعُهُ وَمَنْ يَعْصِيه»**[1].

١- الكافي، ج٣، ص٢١.

تأكيد أهل البيت عليهم السلام على مراعاة أدب الصلاة بالتفصيل

تأدُّب المصلّي بين يدي إله العالمين هو من المسائل التي اهتمّ بها أهل البيت عليهم السلام غاية الاهتمام وقدّموا في هذا المجال توصيات كثيرة مع ذكر التفاصيل.

الإمام الرضا: لا تقم إلى الصلاة متكاسلًا

على سبيل المثال يقول الإمام الرضا عليه السلام في هذا المجال: «**فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقُومَ إِلَى الصَّلاةِ فَلا تَقُومُ إِلَيْهَا مُتَكَاسِلًا وَلا مُتَنَاعِسًا وَلا مُسْتَعْجِلًا وَلا مُتَلاهِيًا وَلَكِنْ تَأْتِيهَا (عَلَى السُّكُونِ) وَالْوَقَارِ وَالتُّؤَدَةِ وَعَلَيْكَ الْخُشُوعُ وَالْخُضُوعُ مُتَوَاضِعًا للهِ جَلَّ وَعَزَّ مُتَخَاشِعًا عَلَيْكَ خَشْيَةٌ وَسِيمَاءُ الْخَوْفِ رَاجِيًا خَائِفًا بِالطُّمَأْنِينَةِ عَلَى الْوَجَلِ وَالْحَذَرِ، فَقِفْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْعَبْدِ الْآبِقِ الْمُذْنِبِ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلاهُ**[1]، **فَصُفَّ**

١- وهذا من آداب الصلاة حتّى وإن لم تكن مذنبًا.

قَدَمَيْكَ وَانْصِبْ نَفْسَكَ وَلا تَلْتَفِتْ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَتَحْسَبُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَلا تَعْبَثْ بِلِحْيَتِكَ وَلا بِشَيْءٍ مِنْ جَوَارِحِكَ، وَلا تُفَرْقِعْ أَصَابِعَكَ وَلا تَحُكَّ بَدَنَكَ، وَلا تُولَعْ بِأَنْفِكَ وَلا بِثَوْبِكَ، وَلا تُصَلِّ وَأَنْتَ مُتَلَثِّمٌ، وَلا يَجُوزُ لِلنِّسَاءِ الصَّلَاةُ وَهُنَّ مُتَنَقِّبَاتٌ، وَيَكُونُ بَصَرُكَ فِي مَوْضِعِ سُجُودِكَ مَا دُمْتَ قَائِمًا وَأَظْهِرْ عَلَيْكَ الجَزَعَ وَالهَلَعَ وَالخَوْفَ، وَارْغَبْ مَعَ ذَلِكَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلّ»[1].

الإمام الباقر: لا تعبث برأسك ولحيتك

وعن أبي جعفر الباقر عليهما السلام: «إِذَا قُمْتَ فِي الصَّلاةِ... وَلا تَعْبَثْ فِيهَا بِيَدِكَ وَلا بِرَأْسِكَ وَلا بِلِحْيَتِكَ... وَلا تَتَثَاءَبْ، وَلا تَتَمَطَّ، وَلا تُكَفِّرْ[2] فَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ المَجُوس... وَلا تَحْتَفِزْ[3] وَلا تَفَرَّجْ كَمَا

١- فقه الرضا عليه السلام، ص١٠١

٢- التكفير: وضع إحدى اليدين على الأخرى محاذيًا للصدر.

٣- احتَفَزَ وتحفَّزَ في جلسته: انتصب فيها غير مطمئن كأنّه يريد القيام.

يَتَفَرَّجُ الْبَعِيرُ وَلا تُقْعِ عَلَى قَدَمَيْكَ[1] وَلا تَفْتَرِشْ ذِرَاعَيْكَ[2] وَلا تُفَرْقِعْ أَصَابِعَكَ فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ نُقْصَانٌ مِنَ الصَّلاةِ، وَلا تَقُمْ إِلَى الصَّلاةِ مُتَكَاسِلًا وَلا مُتَنَاعِسًا وَلا مُتَثَاقِلًا»[3].

لماذا شدّد أهل البيت عليهم السلام على مراعاة هذه التفاصيل في آداب الصلاة؟

ذلك أن التأدّب بين يدي الله تعالى شيء بالغ الأهمية، وقد أرادوا عليهم السلام تعليمنا أدب الصلاة.

مراعاة الأدب في المقدّمات، والتعقيبات والصلاة في وقتها

فضلًا عن الالتزام بأحكام الصلاة وآدابها، علينا أن نجتهد في التأدّب في مقدماتها وتعقيباتها أيضًا، كتحرّي بعض الدقة في الوضوء والتقيّد بآدابه. فلا

١- أقعى الرَّجلُ في جلوسه: جلس على أليتَيه ونصب ساقيه وفخذيه.

٢- افتَرَشَ ذراعَيه: بسطهما على الأرض كالفِراش له.

٣- الكافي، ج٣، ص٢٩٩.

ينبغي أن نكتفي بمجرّد سكب الماء على أيدينا. لننتبه إلى أننا نقوم بعمل وقور. فكيف بك إذا أردت غَسل فاكهة أمام ضيفٍ لتعطيه إياها؟ إنك ستفعل ذلك بكل احترام.

انتبه حينما تتوضّأ أمام خالقك إلى أن الوضوء ليس لمجرد النظافة كي تضرب بكفك على أعضاء الوضوء على عجل ثم تدير ظهرك وتذهب! هل أنت ضجر من هذا العمل لتنجزه في هذه العجالة دونما تأنٍّ؟! وهل تريد أن يسلبك الله التوفيق إلى الصلاة قائلًا لك: «لستُ أريد أن تصلي أساسًا! أخشى أن تكون منزعجًا من أنني شئتُ أن أمارس ربوبيّتي عليك وأشاهد عبوديّتك لي»؟!

وإذا فرغ المرء من صلاته ولم يأت بتعقيباتها قال الله لملائكته: «خُذُوا صَلاتَهُ فَاضْرِبُوا بِهَا وَجْهَه»[٤]. فأنا أقول له: إنّ لك بعد الفراغ من الصلاة دعوةً مستجابة أُعطيك

٤- مستدرك الوسائل، ج٥، ص٢٩.

بها كل ما تسأل[1]، فإذا به يقوم ويغادر. إلى أين يذهب؟ أيّ أمر دنيويّ من أموره يريد قضاءه وهو لم يأت بتعقيبات صلاته؟! ألا يعلم أن كل شؤونه بيدي[2]؟! يا ملائكتي، إن شئتُم أفسدتُ عليه أموره كي يدرك أن كل حوائجه وجميع ما يطلب بيدي».

التأذب عن طريق الصلاة في وقتها

مضافًا إلى التقيّد بأحكام الصلاة والاهتمام بمقدماتها وتعقيباتها فإن من الأمور المهمة الدالة على أدبنا تجاه ربّ الأكوان هي الإتيان بالصلاة في أول وقتها. فتأدية الإنسان لصلاته في وقتها هو بحد ذاته نوع من التأدّب، وإن الذي يؤخّر صلاته عن وقتها هو كمن يسيءُ الأدب مع ربه.

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «مَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فَلَهُ عِنْدَ اللهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَة» (عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٨).

٢- يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ العَبدَ إذا عَجَّلَ فَقامَ لِحاجَتِهِ يَقُولُ اللهُ تَبارَكَ وَتَعالى: أَما يَعلَمُ عَبدي أَنّي أَنا اللهُ الَّذي أَقضِي الحَوائِجَ» (الكافي، ج٢، ص٤٧٤).

كان لقائد الثورة الإمام الخامنئي دام ظله ذات مرّة اجتماعٌ مع بعض المسؤولين. وبعد أن أدلى الجميع بكلماتهم وجاء الدور لسماحته بدأ بالحديث. ولم تنقضِ دقائق حتى ارتفع صوت المؤذّن. فقال: «إذا تابعنا اجتماعَنا الآن فسيكون بمثابة العناد مع الصلاة»، فقطع حديثه، ثم أتَمّه بعد الصلاة[1].

رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **«لَيْسَ عَمَلٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الصَّلاة فَلا يَشْغَلَنَّكُمْ عَنْ أَوْقَاتِهَا شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَمَّ أَقْوَامًا فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾[2] يَعْنِي أَنَّهُمْ غَافِلُونَ اسْتَهَانُوا بِأَوْقَاتِهَا»**[3].

١- نقلًا عن آية الله مقتدائي مدير الحوزات العلميّة في إيران حسب موقع وكالة الحوزة الرسميّة للأنباء، رمز الخبر ٢٨٠٢٠٤ في تاريخ ١٣٩١/٣/٤ هجري شمسي).

٢- سورة الماعون، الآية ٥.

٣- الخصال للصدوق، ج٢، ص٦٢١.

السلوك الحسن يستلزم الأدب لا المحبّة

ما يلزم الإنسان أثناء الصلاة هو إظهار الأدب تجاه الله سبحانه وتعالى لا مبادلتَه المحبّة. والأدب حالة دائميّة، أي من المتيسّر مراعاتها في أي وقت، ولا علاقة لها بحالة الإقبال أو بمشاعر الحبّ. وحتى أولياء الله فإنّهم في صلواتهم، بل ومناجياتهم مع ربهم، متأدّبون أكثر منهم محبّون.

استمراريّة الأدب

أتدري ما هو الأدب يا صديقي؟

قد لا يميل المرء في كثير من الأوقات إلى إظهار مشاعر الحبّ لأبيه لكنه ـ مع ذلك ـ ينتصب واقفًا إذا دخل عليه والدُه، وهذا هو معنى الأدب تحديدًا. فالإنسان المؤدَّب يلقى جارَه بوجه بشوش ويبادره بالسؤال عن حاله حتى إن لم يكن راغبًا في ذلك. فقد لا تبادل جارَك مشاعرَ المودّة لكنك تعامله بكل أدب واحترام إذا صادفته في الطريق.

فحينما تغيب المحبّة فإنّ الأدب هو الذي يحمل المرء على حُسن السلوك. وحتى إذا لم تكن لديه حاجة

عند الطرف المقابل فإن أدبه سيدفعه إلى طِيب التصرّف معه. فنحن نقول لبعضنا البعض إذا تلاقينا في الطريق مثلًا: «السلام عليكم. كيف حالك؟ هل أنت بخير؟ تقبل الله زيارتك..الخ». وقد يعترض مَن لا يفهم معنى الأدب فهمًا صائبًا بالقول: «أَلَديك حاجة عند الرجل أم أنّك تطمع في ماله حتّى تحيّيه وتسأل عن حاله بكل هذه الحرارة»؟!

فأقول له: «لا أطمع في ماله. بل لو أنّه طلب مني مالًا لأَقرَضته»!

ـ «إذًا فلماذا تتواضع أمامه كل هذا التواضع؟ هل تُحبّه»؟

ـ «إنّه رجل ليس على درجة رفيعة من الصلاح. ولذلك أنا لا أحبّه، بل قد لا أحزن إذا أُخبِرتُ بموته أيضًا. وما من شيء يدفعني إلى التصرّف بتواضع سوى الأدب. الأدب هو الذي يقول لي: ابتسم. فالابتسامات

ويُنقل أنه عندما اقتادوا سبايا الطفّ إلى الشام رفع أحد جلاوزة يزيد اللعين تقريرًا له قال فيه: «يا يزيد! مهما أوسَعنا أطفالَ الحسينِ ضربًا لم تصدر من أحد منهم كلمة نابِيَة ولم يبدُر منه سلوك يفصح عن قلة أدب». نعم إنّها حقًّا أسرة وقورة. إنهم أطفال تربّوا على الأدب. فحينما يخسر الإنسان كل شيء ينكشف آنذاك مقدار ما يحمله من الأدب. فالمؤدّب هو مَن يُحسن التصرّف حتى في أحلك الظروف.

المهمة الرئيسية لنظام التربية والتعليم تعليم الأدب

عندما يقف الأبناء الذين اجتازوا مرحلة الدراسة الثانوية بوجه آبائهم وأمّهاتهم دونما رعايةٍ للأدب ففي ذلك مؤشّر على أن وزارة التربية والتعليم لم تقم بوظيفتها على النحو المطلوب. ولقد نبّهتُ مسؤولي وزارة التربية والتعليم مرّةً إلى أنّ الأهم والأكثر أساسية من بين جميع التعاليم الدينية التي تغذّون بها أبناءنا هي تعليمهم الأدبَ. لقّنوا الأطفال بأنه

وأنني منزعج، لكن بما أنه لم يصدر من الآخرين تجاهي أي أذىً فإن عليَّ أن أعاملهم بأدب».

وحتى لو تشاجر الموظّف المؤدّب مع زوجته، لا سمح الله، فإنه لا يُفرغ غيضَه على أوّل شخص يراجعه إذا جلس خلف مكتبه في مقرّ عمله، بل يبتسم له كأيّ امرئ هادئ رصين. فمن غير اللازم أن تكون محبًّا لمراجعيك أو محتاجًا لهم كي تعاملهم مثل هذه المعاملة.

نعوذ بالله من عديمي الأدب. فصفة المؤمن أن يكون: «بِشرُهُ فِي وَجهِهِ وَحُزنُهُ فِي قَلبِهِ»[1]. لماذا؟ لأن هذا من مقتضى الأدب.

الأدب يكبح جماح الهوى

الإمام الصادق: خير الإرث الأدب

يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إِنَّ خَيْرَ مَا وَرَّثَ الآبَاءُ لأَبنَائِهِمُ الأَدَب**»[2].

١- نهج البلاغة، الحكمة ٣٣٣.

٢- الكافي، ج٨، ص١٥٠.

والرئيسية على مستوى التعليم الديني بدلًا من بث الكثير من الأفلام الدينية والبرامج التعليمية.

إن من جملة ما يطرحه الدين في مجال تعليم الأدب هو أنه لا ينبغي للابن، إذا مشى مع والده، أن يتخلّف عنه بمسافة كبيرة كي لا يُجبر الأب على الالتفات إليه وحثّه على غَذّ السير بالقول: «هيّا، أسرع يا ولدي». كما لا يصحّ أن يسبق الابن أباه فيضطر الأب لتنبيهه: «ولدي، أَبطِئ قليلًا لألحق بك. لقد انقطع نفَسي». بل ولا يُستحسن أن يسير الابن بمحاذاة والده تمامًا، وكأنه يقول له: «لقد كبرتُ يا أبي وقاربتُ عمرك». فإن رغب الولد في السير مع أبيه فعليه أن يتأخّر عنه بخطوة واحدة. ثم عليه أن لا يسبق والده بالجلوس [1]. أي أن يتصرّف مع أبيه

١- عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «سأل رجل رسولَ الله صلى الله عليه وآله: مَا حَقُّ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ؟ قَالَ: لا يُسَمِّيهِ بِاسمِهِ، وَلا يَمشِي بَينَ يَدَيهِ، وَلا يَجلِسُ قَبلَهُ، وَلا يَستَسِبُّ لَهُ» (الكافي، ج٢، ص١٥٨ ١٥٩).

المرحلة الأولى: الصلاة بأدب

لا بدّ أن تكون للمَرء القدرةُ على مخالفة هواه، وأن الأدب هو العامل الذي يسيطر على هوى النفس[1].

أخبروهم بأنّه إذا أحبّ الإنسان القيام بفعلٍ ما فليس من الضروري أن يستعين دومًا بقلبه. ربّوا الطفل بحيث إذا قال لنفسه: «أنا أحب هذا» رأى أن قوله قبيح، إذ لا ينبغي للإنسان أن يفعل كل ما يهواه.

هذا ولو بُثَّت هذه المفاهيم عبر الأفلام لكانت أشدّ وقعًا وتأثيرًا في النفوس من الكلام عن الله والنبي صلى الله عليه وآله والثورة بشكل مباشر. فالقيام بذلك يقلب طاولة الكفر على رؤوس أصحابها.

آداب مشي الابن مع الأب

يكفي أن تعلّم مؤسسةُ الإذاعة والتلفزيون أبناءَ المجتمع الأدب باعتباره من الأولويات المهمة

١- يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ضَبطُ النَّفسِ عِندَ الرَّغَبِ وَالرَّهَبِ مِن أَفضَلِ الأَدَب» (غرر الحكم ودرر الكلم، ص٤٢٧). فنصف مفاسد أرواحنا ناجمة عن رغباتنا ونصفها الآخر ناشئة عن مخاوفنا التي في غير محلها وفي وسعنا اتّقاء الاثنين بالأدب.

كمن يقول له: «أنا معاونُك»، أي مرؤوسُك أو: «أنا غلامُك».

الإمام السجاد وأدبه مع أمه

عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام قال: «**كَانَ (عليّ بن الحسين عليه السلام) يَأْبَى أَنْ يُؤَاكِلَ أُمَّهُ [أي يرفض أن يأكل معها]. فَقِيلَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، أَنْتَ أَبَرُّ النَّاسِ وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ فَكَيْفَ لا تُؤَاكِلُ أُمَّكَ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَسْبِقَ يَدِي إِلَى مَا سَبَقَتْ عَيْنُهَا إِلَيْهِ**»[1] [أي أكره أن أمد يدي على لقمة طعام كانت تحبّ هي أن تأكلها]. وهذا يُبرز مدى الاهتمام الذي يوليه أهل البيت عليهم السلام لأدب الولد تجاه والديه!

والصلاة ـ بالدرجة الأولى ـ هي تأدّب للإنسان بين يدي الباري سبحانه وتعالى لا مغازلة له. فإن راعيتَ الأدب أثناء الصلاة مدّة من الزمن فسيتولّد لديك الحبّ.

١- الخصال، ج٢، ص٥١٧ ٥١٨.

فالمطلوب من الصلاة في البداية أن تعمل على إزعاجنا وسَلبِ راحتِنا. ولهذا فإنك عندما تكون مشغولًا بعمل ما ويُرفَع الأذان فجأة تقول مع نفسك: «لكن ليس لي الآن إقبالٌ على الصلاة». فيقال لك: «الصلاة أساسًا صُمِّمَت لتسلُب راحتَك وهذا هو أصل الموضوع. ومن أجل أن تكون مؤدَبًا فلا بدّ من شيء يُزعزع راحتَك قليلًا. إذًا عليك بالرضوخ لهذا الأمر».

عاقبة قلّة الأدب

هل تعلم كيف ستكون عاقبة عديمي الأدب والذين يفعلون كل ما يحلو لهم؟

إنهم سيصلون إلى مرحلة لا يعودون يلتذّون بأي شيء. فالذي يفعل كل ما يشاء، ويقول كل ما يحب، ويسيء الأدب، وينطق بالكلام البذيء، ويسخر بالآخرين، ويُكثر الصراخ.. الخ سيبلغ به الدهر إلى حيث لا يحس في حياته بأي لذّة حتى لو أطلق في اليوم الواحد آلاف الشتائم والكلمات النابية واستهزأ بآلاف الأشخاص.

بل ما من إنسان يسيء الأدب إلا ويصل به الأمر إلى مرحلة تتلاشى فيها روحُه، فلا يُتاح له الاستمتاع بعيشه حتى لو اقترف آلاف المعاصي، وتمادى في سُكرِه وعربَدته. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**طَلَبْتُ العَيْشَ فَمَا وَجَدْتُ إلاّ بِتَركِ الهَوَى فَاتْرُكُوا الهَوَى لِيَطِيبَ عَيْشُكُم**»[1]. أي: خالفوا أنفسكم فيما تهواه كي تستمتعوا بعيشكم ولا تتكدّر حياتكم. فكل من ضبط نفسَه أكثر تعاظَمَت لذّته في عيشه.

فما المشكلة، مثلًا، في أن يرتدي طلاب ثانويّاتنا زيًّا موحّدًا؟ أتعلم كم أن هذا أقرب إلى الأدب؟

- «دَعنا وشأنَنا أيّها الشيخ. إن هذا صعب علينا».

- «قل لي يا هذا، لِمَ قُلت: دعنا وشأننا؟! مَن قال لك إنه أمر صعب؟! مَن أخبرك بأن في وسعك أن

١- جامع الأخبار، ص١٢٤.

ترتـدي مـا يحلـو لـك مـن الثيـاب؟! بـل، مَـن أبلغـك بأنـك سـتجني لـذّة أكبر بهـذه الطريقـة؟! ومَـن زَعَـم أنّ العيـش بهـذا النمـط يكـون أكثـر راحـةً وهناءً؟! بـل إنه سـيكون أشـدّ مرارةً وتعاسـةً».

شيوع سوء الأدب بين الغربيين

سكوت الغربيين على الظلم سببه انتشار سوء الأدب بينهم

بتصـوّرك مـا هـي الطريقـة التـي سـلكَتْها وسـائل الإعلام السـاعية في نشـر الفسـاد فـي العالـم لبلوغ هذا الهـدف؟ ومن أيّ باب دخلـوا لتكون النتيجة ما نشـهَده اليـوم مـن وضـع فـي فلسـطين حيـث يُقَطَّـع الأطفـال الفلسـطينيون إربًـا إربًـا دون أن ترتفـع مـن حنجـرةٍ كلمـةُ اعتـراضٍ واحـدة؟ إلـى أيـن تمتـد جـذور الحالة التـي نحـن فيهـا؟ ووفـق أيّ شِـرعَةٍ تنهمـر القنابل على رؤوس أطفـال فلسـطين ولبنـان المضطهديـن؟ ولأي شـيء تتدفّـق أمـوال وضرائـب الأوروبّييـن، العديمـي الضميـر والإنسـانية، علـى إسـرائيل لتقـوم ـ بـكل بسـاطة ـ باقتـراف أي جريمـة تخطـر فـي بالهـا؟

هل يا ترى مات المثقّفون في أوروبا (في فرنسا وانجلترا) وفي أميركا وغيرها فلم يعودوا يبصرون كل هذا الظلم وتلك الجرائم؟ لماذا لا يرتفع لهم صوت؟ كيف مُسِخ سُكان أوروبا كي يسمحوا لكل هذه الجرائم أن تُرتكب بأموالهم ودعمهم بكل بساطة؟

باعتقادك، بأي شيء مُسِخَ هؤلاء القوم؟

لقد مسخَتهم أفلام هوليوود التي أنتجها لهم الصهاينة أنفسهم! فلقد عكف الصهاينة على الإيحاء إلى الغربيين، فتيانًا وفتياتٍ ونساءً ورجالًا، بأن يسيئوا الأدب مع آبائهم وأمهاتهم وأزواجهم، ومع جيرانهم والآخرين. فيكفي أن تجلس لمشاهدة أفلام هوليوود مدة من الزمن لترى كيف أنك ستخلع رداء الأدب بكل سهولة!

إن منشأ كل هذه الرصاصات التي تمزق قلوب الأطفال الفلسطينيين، وجذور غياب الوجدان من نفوس المجتمعات الأوروبية هو «غياب الأدب»،

وإلّا فما الذي جعلهم يغُطّون في سُبات عميق، بل ويصبحون هم جنودًا للصهاينة، ويقتلون لسواد أعينهم المسلمينَ المظلومين؟!

أول ما سلب الصهاينة من الغربيّين أدبهم

وكأنه ليس ثمة في الولايات المتحدة من يقف بوجه هؤلاء الساسة المتوحّشين. فالذي يتجرَّد من الأدب يخرج من حيّز الإنسانية. وليس انعدام الأدب هذا من سِمات الأوروبيين والغربيين. إذ طالما عمل الصهاينة على كَيِّ عقول الغربيّين ثقافيًا حتى نجحوا في انتزاع الأدب من فتياتهم وفتيانهم ونسائهم ورجالهم. فالأدب إذًا هو أول ما سرقه الصهاينة من الغربيين.

أتدري ـ على سبيل المثال ـ كم من الألفاظ النابية والكلام البذيء يتم تمريره من المسلسلات البوليسية العادية ـ التي يبدو أنها لا تنطوي على كبيرِ ضرر والتي تعرضها شاشة تلفزيوننا أحيانًا ـ كي يصيّروها صالحة للعرض؟ فما الداعي لكل هذه البذاءة؟

الجواب: لقد علّموهم أن يريحوا بالهم ويتفوّهوا بكل ما يحلو لهم. فهل يُمكن أن لا ينطق الأوروبّي بالكلام البذيء؟!

صفاقة الأوروبيين

- «يا شيخ، نحن نسمع أن الأوروبيين يبتسمون لبعضهم البعض»!

- «إنهم يبتسمون للغرباء كي يجتذبوهم إليهم ويكسبوا قلوبهم. لكن بيوتهم طافحة - إلى حد يفوق تصوّرك - بالقسوة. فحياتهم في الغالب كحياة الوحوش الضارية».

أتعلم لِمَ تقابل الذئاب بعضها البعض إذا أرادت النوم؟ إنها تفعل ذلك مخافةَ أن يهاجم بعضها البعض الآخر. وهذه هي سجيّة بعض قُساة القلوب من الناس أيضًا.

فلماذا نرى أن أكثر الجنود الأوروبيين الذين يجنّدهم الصهاينة في مختلف البلدان هم من خرّيجي

دور الأيتام الذين لا يُعرف آباؤهم وأمهاتهم؟ ولأي سبب انهار كيان الأسرة في الغرب؟ السبب هو انحطاط أدبهم، إذ قد ربّوهم على أن يواجه بعضهم البعض، وأن يقف الابن بكل حزم بوجه أبيه إذا منعه الأخير من أمرٍ ما!

تشريع قلّة الأدب في الدول الأوروبية

يوجد في الدول الأوروبية خط هاتف (طالما أصرّوا على الجمهورية الإسلامية أن تُنشئ مثلَه) يُطلَق عليه: «الخطّ الساخن لحماية الأطفال». فكما يوجد لدينا خط هاتف خاص بالشرطة بحيث إن في وسع المرء، إذا ما شاهد جريمة، أن يبلغ الشرطة من خلاله بأسرع وقت كي تحضر في محل الجريمة، فإنهم طالما أصروا علينا بأن يكون لنا أيضًا خطّ هاتف خاص بالأطفال. لأي شيء؟ من أجل أن يكون في ميسور الطفل كلما قال له أبوه: «ولدي، أيّ فلمٍ هذا الذي تتفرّجه؟!» أن يرفع سماعة الهاتف ويتصل بالشرطة قائلًا: «مخفر الشرطة؟ هذا أبي يسيء معاملتي، تعالوا وألقوا القبض عليه»! فتأتي

الشرطة، اعتمادًا على قول الطفل هذا، وتلقي القبض على أبيه إلى أن يتبيّن للقاضي ـ إذا نظر في القضية ـ إنْ كان الطفل محقًّا فيما قال أم لا!

وهذا يعني تشـريع سوء الأدب وجعله قانونًا!

التمسّـك بالأدب داخل العوائل الصهيونية

أتعلَـم كيـف هـي حيـاة الصهاينـة فـي الولايـات المتحـدة نفسـها، وهـم الذيـن بثّوا سـوء الأخلاق داخل الأُسـر الغربيـة؟

متى ما أرادت العائلة منهم الخروج من المنزل تصدَّرَ الأبُ في المقدّمة، ثمّ تلَتْه الأم. ومهما بلغ سّن أولادهم فإنهم ينحنون لأبيهم عند لقائه ويقبّلون يده. ما يعني أن للأب سيادة على الابن. وإذا سألتَهم: ما سبب طغيان نظام سيادة الأب على العوائل الصهيونية؟ ولِمَ كل هذا الأدب من الأولاد تجاه آبائهم؟ قالوا: «لأننا معاشرَ الصهاينة نفكّر في إدارة العالَم. وليس في وسعنا أن نفعل

ذلك إذا كان أولادنا قليلي الأدب». لكن هؤلاء أنفسهم يعلّمون أولادنا، في ما ينتجونه من الأفلام، أن يتفوّهوا بما يشاؤون من البذاءة ويقفوا في وجه آبائهم وأمهاتهم. وهم يلقّنون النساء بمجابهة أزواجهنّ والإساءة إليهم، والرجالَ بإهانة زوجاتهم أمام أطفالهم. فيعملون بذلك على تجريد العائلات من الأدب والأخلاق.

روعة المزج بين «الأدب» «والمحبّة»

هل يتعيّن على الأولاد أن يتأدّبوا أمام آبائهم، أو أن يتصرّفوا كما يحلو لهم؟

في الحقيقة لا بد من التوليف بين الحالتين؛ أي أن يتأدّبوا أمامهم، بل وبصرامة حينًا، ويتصرّفوا براحة حينًا آخر.

ودونك قول الإمام السجاد عليه السلام في هذا المزج الرائع فتأمّل فيه: «**اللَّهُمَّ اجعَلنِي أَهَابُهُما هَيبَةَ**

الأدب مع الوالدين وحبّهما في كلام السجاد

السُّـلطانِ العَسُـوفِ، وَأَبَرُّهُمَـا بِـرَّ الأُمِّ الـرَّؤُوف»[1]؛ أي اجعلنـي أخافهمـا خـوف العبـد مـن السـلطان الجائـر المتغطـرس، وارأف بهمـا رأفـة الأُمّ الحنـون برضيعها. فتخيّـل كيـف للعبـد أن يتعامل مع السـلطان المتعسّـف وكـم عليـه أن يهابـه ويحسـب لـه حسـابًا؟ يقـول عليـه السـلام: اجعلنـي إلى هـذا الحـد متواضعًا أمـام والدَيّ كـي أهابهمـا وأحسـب لهما حسـابًا.

وبـكلام الإمـام السـجاد عليـه السـلام يتضـح كل شـيء. فلو حسـبتَ لأبيـك ألف حسـاب فسيقول لك: «أنـا أحبـك يـا عزيـزي. لا تكن صارمًـا مع نفسـك إلى هـذه الدرجـة. علـى رِسـلِك». لكنـك إذا عاملـتَ أبـاك بصداقـة حميمـة جـدًّا وتخطّيت حـدَّ الاتّـزان في حبك لـه، فسيشـعر بالمهانـة طبعًا ويقـول لك: « إننـي أبوك يا هـذا. أنـا لسـت طفلك»!

١- الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٤: من دعائه عليه السلام لأبويه.

لـذا فالروعـة هـي فـي التوليف بيـن الحالتيـن، لا في تطبيـق واحـدة دون الأخرى.

الجمع بين الأضداد فنّ علينا إتقانه

عليك أن تتعلم فنّ التوليف بين الأمور والجمع بين الأضداد. كأن تتمرّن على التبسّم ساعة الضجر[1]. فالجمع بين الأضداد يجعل الإنسان يتكامل. وهذا ينطبق على تعاملنا مع الله سبحانه وتعالى أيضًا. فهل علينا التأدّب بين يدي الله عز وجل أو التصرّف كما نشاء؟

قـد نسـتطيع أحيانًـا التعامـل مـع الله عزّ وجـلّ دونما أي تمهيـد أو أدب ونبـوح لـه بـكل مـا يجـول فـي صدورنـا إذا ضاقَـت. لكـن ينبغي لنا، أحيانًـا أخرى، أن نتحلـى أمامـه تعالـى بـالأدب؛ أدبٌ مـدروس، خاضـع لضوابـط، لا تَسـامُح فيـه. لكـن الجمـع بيـن هاتيـن الحالتيـن سـيكون غايـة فـي الروعـة.

١- عـن أميـر المؤمنيـن عليـه السـلام: «المُؤمِـنُ بِشـرُهُ فِـي وَجهِـهِ وَحُزنُـهُ فِـي قَلبِـه»، نهـج البلاغـة، الحكمـة ٣٣٣.

إذًا يتعيّن علينا في بعض الأوقات أن نُظهِر على أعتاب خالِقنا أدبًا راقيًا، وذروة هذا الأدب هي في الصلاة. لكن تستطيع، في أوقات أخرى، أن تَفُوه له بكل ما تودّ دون أدنى حرج.

قُم لأبيك وقف بين يديه بمجرد أن يدخل عليك كما يقف الجندي أمام قائده. فلا أدري لماذا يصبح البعض حميمين مع آبائهم في لحظات. فقد يدخل الأب إلى المنزل وإذا بالابن باقٍ على جلسته قد مَدّ رجليه وكأنّ شيئًا لم يكن! ألا يعلم هذا الولد أن أباه كان الواسطة في خَلقِه؟! فلو أنك حمَلتَ أباك على كاهلك قاصدًا به بيت الله الحرام للحجّ سبعين مرة لما استطعتَ أداء حقّه. هذا حال أبيك، فما بال أمك[1]! إذًا فانتصب قائمًا إذا دخل عليك أبوك، وأَظهِر له شبيه تلك المحبّة التي تحوط بها

١- «أنّ رجلًا كان في الطواف حاملًا أُمّه يطوف بها. فسأل النبيَّ صلى الله عليه وآله: هل أدّيتُ حقّها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة» (تفسير في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٢٢٢، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٨، ص٤٤٧).

الأمُّ وليدَها، والتي أشار إليها الإمام السجاد عليه السلام، وستلمَس أيَّ روعةٍ في التوليف بين المهابة والمحبة.

الجمع بين الأدب والمحبة في زيارة مشاهد أهل البيت

حينما تتشرف بالوفود إلى مشاهد أهل البيت عليهم السلام فإنك تقف أحيانًا عند الباب بمنتهى الأدب وتقول: «ما لم تأذن لي يا مولاي بالدخول إلى حرمِك فلا أتجرّأ على دخوله. طوبى لهؤلاء القوم. لقد أذنتَ لهم جميعًا بالدخول. لكن ما شأني بهم؟! إني أريد منك الإذن لأدخل حرمَك. أنا من جانبي أعرف نفسي..». فزيارتك ستكون أحلى إذا أبديت مثل هذا الأدب فيها.

إذًا فأنت تارةً تتلو الزيارة على هذا المستوى من التأدب، لكنك تارة أخرى تضع وجهك على ضريح الإمام عليه السلام وتُفضي إليه بكل ما يضيق به صدرك، فتقول: «يا سيدي.. يا حبيبي.. ضعُفَت قوّتي، وقلَّت حِيلَتي، ولا ملجأ لي إلا إليك، فخذ بيدي..».

التأدّب يمهّد لمناجاة العشاق

يودّ الجميع لو يقدرون على مخاطبة الله تعالى ومناجاته مناجاة العشّاق دونما تكلّف، وعبادته عبادة تطفح بالحب والحلاوة. لكنه يتعيّن على كل مَن يرغب في أن يحدّث الله حديث العاشقين بطمأنينة أن يكلّمه بأدب أولًا. وإن من جملة مواطن التأدب مع الله أثناء الحوار معه هو القراءة الصحيحة حال الصلاة[1]. فتمعّن في قراءة صلاتك وانظر إن كانت صحيحة أم أنك تُخطئ فيها؟ فإنك تُسيء الأدب مع ربك إذا أخطأت في قراءتك. فلو التقيتَ في الطريق بشخص وقور فهل ستحَيّيه بأيّ عبارة تجري على لسانك، كأن تقول له: «كيفك حبيبي»؟

إذًا فلتكن مؤدّبًا في كلامك، ولتصحّح قراءة صلاتك، وقل لنفسك: «أريد أن أكون مؤدّبًا في صلاتي».

١- قال الجواد عليه السلام: «مَا اجْتَمَعَ رَجُلانِ إلاّ كانَ أَفْضَلُهُمَا عِنْدَ اللّٰهِ آدَبَهُمَا. فَقِيلَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللّٰهِ، قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ عِنْدَ النَّاسِ، فَمَا فَضْلُهُ عِنْدَ اللّٰهِ؟ فَقَالَ: بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ كَمَا أُنْزِلَ، وَيَرْوِي حَدِيثَنَا كَمَا قُلْنَا، وَيَدْعُو اللّٰهَ مُفْرَمًا بِدُعَائِهِ» (إرشاد القلوب، ج١، ص١٦٠).

فإذا رآني الله عز وجل حريصًا كل الحرص على تصحيح قراءة صلاتي قال لملائكته: «انظروا إلى عبدي. إنه يكابد الصعاب لينطق أمامي ببضع كلمات بأدب»، أي إنه عز وجل سيفاخر بعبده.

فمن الخير للمرء أن يقصد ـ بين الحين والآخر ـ قارئًا للقرآن الكريم لتصحيح تلاوة الحمد والسورة حتى وإن كان هو نفسه من خرّيجي دورات التجويد. إذ من الممكن أن يعود، بعد مدة من الترك، إلى ما سبق أن تعوّد عليه لسانه من الخطأ.

بعض معايير الصلاة بتأدّب

ما المراد من الوقوف للصلاة بتأدّب؟

الصلاة بتأدب هي أن يصليها المرء في وقتها، ويُحسن قراءتَها، ويُتقن صورتَها، ويأتي بالحد الأدنى من مستحبّاتها. وهي أن يخصص لها وقتًا كافيًا ولا يعجّل في الانتهاء منها.

لماذا تؤدّي صلاتك بكل هذه العجلة؟ أَتودّ

ـ والعياذ بالله ـ أن تقول للناس إنّ ربّي ليس ممّن يتحتّم احترامُه؟! أتراك وقفتَ على باب ربّك لكي تُسقطه من أعيُن عباده؟! أيُّ تصرّف هذا الذي تتصرّفه مع ربك؟! فإن الله يقول لك: «هل تظنّ أنّي لا أشكرك لو خصَّصتَ دقيقةً واحدة من وقتك لي وحدي؟! أنا لم أقل لك: ائتِني بقلبك، فأنا أعلم أن القلب لا يعشق بهذه البساطة، بل ويُدبِر أيضًا، لكنني قلتُ: هاتِ بدنَك وصَلِّ بأدب».

ليكن في علمنا أننا إذا لم نكن مع الله تعالى في صلاتنا، ولم نُخلص الولاء في حضرته، فمن الطبيعي أن لا نكون معه في باقي ساعات يومنا. وإذا بعُدنا عنه ونحن في الصلاة، فسنكون ـ بطبيعة الحال ـ أبعد عنه في غيرها.

تعلُّم الأدب هو من أسرار وجوب الصلاة

ما السرّ الذي جعَلَ الله يأمرنا جميعًا بالصلاة ويوجِب علينا هذا العمل على هذا النحو من التكرار؟

إن أحد أسرار ذلك هو التأدّب في مقابل الله عز وجل. فالله تعالى ـ حسَب العديد من الروايات التي مرّت الإشارة إلى بعضها ـ يريد من عباده أن يصلّوا بأدب.

واجبات الصلاة متكررة وتثير الملل

إتقان الصلاة هو الإتيان بواجباتها. أو، بعبارة أخرى، الإقرار بواجبات الصلاة ثمّ الإذعان لها. فلقد جُعلَت واجبات الصلاة على نحو يثير ملل الإنسان في العادة، فتغدو ـ بعد بضعة أيام ـ رتيبة تبعث على السَّأَم. ويكفي أن نقبل بهذه الصلاة كما هي، وأن يظهر هذا القبول على مُحَيّانا وسلوكنا.

العبادة الرتيبة خالية من اللذة

لا ينبغي أن نقول لله: «إلهي، لقد غدَت الصلاة رتيبة مُمِلّة». ولا يجوز أن نقول له: «اجعل لنا عبادة أخرى تكون أكثر جاذبية كي نعبدك بمزيد من اللذّة».

دعنا نتأمل في أنه لماذا جعل الله الصلاة على هذا النمط من التكرار، وعلى وتيرة واحدة، وباتجاه قبلة واحدة، وبأذكار ثابتة لا تتغير؟

فلنقف بين يديه تعالى ونقول له: «إلهي، هل تريد أن لا يكون لنا في الصلاة شيءٌ جديد؟ إذًا فما الخاصّية التي تريد أن تحملَها الصلاةُ لنا؟ إلهي، هَبنا هذه الخاصّية بالذات. فليست الصلاة بالعمل الجديد كي نستمتع بكونها جديدة[1]. فلذّة الصلاة لا تلبث أن تزول بسبب التكرار الذي فيها. أيعني هذا أنك أردتنا أن نقوم بعمل لا يكون لنا ممتعًا ولذيذًا بسبب كونه جديدًا؟ فإن لم يكن فيد جديد، فما الذي ينطوي عليه إذًا؟ إلهي، أعطنا هذا الشيء دون غيره».

الصلاة عبادة تُمارَس بأدب. وكما قد سبق ذكره فالصلاة تأدُّب مع رب العالمين قبل أن تكون إظهارًا للمحبة تجاهه. فنحن نحب الله عز وجل، غير أن حبنا هذا لا يحملنا على أن نصلي له خمس مرات في اليوم. وليس في وسعنا ـ في الغالب ـ أن نغازله

١- إشارة إلى مقولة: «لكل جديد لذّة».

أثناء الصلاة. فما أسرع ما تبعث الصلاة فينا المَلَل. بل قد ننزعج أحيانًا ساعة الأذان ولا نجد في أنفسنا الهمّة للإقبال على الصلاة.

إذًا فما الذي جعلَ اللهَ يوجب الصلاة علينا وهو يعلم أن علاقتنا بها غالبًا ليست على ما يرام؟ ألم يكن من الأفضل له عز وجل أن يصبر حتى نصير من العشّاق والعارفين فنُقبل حينها على الصلاة؟ فلو أنّك أمرت أحدًا بفعلٍ ما وأنت تعلم أنه غير قادر على تنفيذه كما يجب تكون قد استخفَفتَ بنفسك وبكلامك. فلماذا إذًا يستخفّ(!) الله، وهو الحكيم، بأوامره؟!

إلهي، أوَلا تعلم أن عبادك سوف لا يرتقون إلى مستوى العاشقين جرّاء الصلاة؟ إلهي، أوَلستَ تدري بأنهم ـ في الأعم الأغلب ـ لا يكونون ملتفتين أثناء صلاتهم؟ إلهي، أوَما تعلم أنهم يملّون من أداء الصلاة خمس مرات في اليوم

وأنهـا ستصبح رتيبـة لهـم؟ إذًا فلِـمَ، يـا إلهـي، أوجبتَهـا عليهـم جميعًـا؟

وسيقول ربّ العزة في جوابه: «أنـا على علـم بكل ذلـك. أتحسبني لا أعلـم؟! أنـا الـذي خلقـتُ ابـن آدم أساسًـا. والآن تريـد أنـت أن ترشـدني»؟!

التأديب هو فلسفة الصلاة المتكررة

ـ «مـولاي، إذا مَـلَّ عبـادُك مـن الصـلاة فمـا جدواها إذًا»؟

ـ «اسكت، فمن الواضح أن للصلاة فوائد كثيرة. أنا لم أُرِد أن يُقبِل عبادي على الصلاة بوَلَع. فأين هم من الولَع؟ ولم أشأ أن يصلّوا صلاة العارفين وهم في الرابعة عشر من العمر. فأين هم من المعرفة؟! بالطبع قد تحصل لهم مثل هذه الحالات الجميلة فيما بعد. لكن، في الوقت الحاضر، لا أثر للولَع والعرفان».

ـ «فمـا الحكمـة إذًا مـن الصـلاة للكثيـر مـن عبـادك وهـم مبتدئـون»؟

ـ «أردتُ من عبادي أن يصلّوا بأدب، وهو أن يُظهِروا احترامًا حتى وإن لم تكن لديهم الرغبة في المغازلة وإظهار المحبة ولم يكن لديهم إقبال على الصلاة».

إذًا أهمّ حكمة في تكرار الصلاة هي تأديب الإنسان. فالكثيرون يُحسنون التبسُّم للغريب عند لقائه، غير أنّ الإنجاز المهم هو أن تقابل باحترام وطلاقة وجه أولئك الذين تراهم باستمرار حتى وإن لم ترغب في ذلك. أي أن تلقى أباك وأمك وزوجتك وأولادك بوجه بشوش كما تفعل مع الغرباء بالضبط. فهذا تحديدًا هو الذي يدلّ على كونك ذا أدب.

فالإنسان الذي لا أدب له تراه يعيرُ الغرباءَ اهتمامَه ويمنحهم ابتساماته مع أنه لا يفعل ذلك مع الذين يراهم بشكل متكرّر، بل يلقاهم بكل برود. والحق إنّ شخصًا كهذا هو عديم الأدب، أي إنّه يتصرف بما يمليه عليه قلبه.

والصلاة تتكرّر وتتكرّر حتى لا تعود لذّتُها في كونها جديدة، وعندها ستعلِّم المصلّي الأدب.

اختلاف الصلاة والزيارة من حيث الحال الروحية

من جملة ما ورد في آداب زيارة مشاهد الأئمة الأطهار عليهم السلام أن عليك التعجيل بالخروج إذا انتهيتَ من الزيارة وعدم المكث في المكان[1]. فإذا رأيت أن حالَك المعنوية ستهفُت إذا بقيتَ في المرقد فارجع إلى المحل الذي تنزل فيه، وامكث للزيارة بضعة أيام ثم ارحل عائدًا إلى وطنك. وحاول جهدك أن لا تزول هيبة المرقَد الطاهر وعظمتُه وحلاوتُه من نفسك. اعمل على أن يكون لك دومًا مكانٌ إذا قصدتَه عاد قلبُك إلى الحياة من جديد، وعلى أن تبقى جدران الحرم وأبوابه وضريحه السَّنِيّ وقبّته النيّرة جديدَةً في عينيك.

١- عن الشيخ الشهيد في آداب الزيارة: «وثالث عَشَرِها تعجيل الخروج عند قضاء الوَطَر من الزيارة لتعظُم الحُرمة و يشتدّ الشوق» (بحار الأنوار، ج٩٧، ص١٣٥).

وليكُن المكان موضعًا لأمَلِك المعنويّ، فإذا أتيت إليه جذبَتْك أبوابُه وأسوارُه إلى حالٍ روحانيّة رائقة.

وإنّهم حين يوصوننا بعدم المكث في المشاهد المشرَّفة طويلًا لئلاّ نملّها فهذا في باب الزيارة، ولا يتسنّى لنا أن نسحبَه على الصلاة. واللافت أن الله سبحانه وتعالى لم يوجب الزيارة كي تُضطرَّ دائمًا إلى شدّ الرحال إلى مشاهد أهل البيت عليهم السلام، لكنّه أوجَب عليك أن تأتي بالصلاة باستمرار.

ومن المحتمَل أنّ هنالك من قال لله مرارًا: «إلهي، دعنا نصلي لك كل فترة مرّة كي تكون للصلاة في أنفسنا حلاوة»!

فيأتي جواب الربّ: «هذا غير ممكن، فالصلاة جُعلَت لتؤَدَّى باستمرار. فلا تفتّشوا عن حلاوتها، بل حاوِلوا تغيير أنفسكم».

فلأننا نأتي بالصلاة على نحو موصول تنعدم حلاوتُها، والله يعلم بذلك. فإذا كان من المقرَّر أن تكون الصلاة بلا «حلاوة»، فما الذي يبقى منها إذًا؟ إنه «الأدب».

شرط التأدّب بالصلاة

حاذر من أن تفرّ روحك من الصلاة

إذا أحببتَ حقًّا أن تتأدّب بواسطة الصلاة فثمة شرط لذلك، وهو أن لا تفرّ روحك منها.

المعلّم، في قديم الأيام، كان يعاقب التلميذ بضربه على يده بالعصا. وكان بعض التلاميذ إذا هَمّ المعلّم بضرب يده يسحب يده خوفًا من ألم الضربة. وتلاميذ كهؤلاء لن يتأدّبوا بعصا المعلم.

الصلاة أيضًا هي بالنسبة إلى البعض مُرّة وقاسية، وإنّ أرواحهم تفرّ منها إذا وقفوا يصلّون كما يفر ذلك التلميذ من عصى معلّمه.

إنّ ذاك الذي يتأدّب بعصا المعلّم لشجاع حقًّا. فالذي يؤمن بالمَثَل القائل: «عصا المعلّم كالعسَل..»[1] لا بد أنّه يُبقي يده ممدودة ويقول لمعلّمه: «اضرب.. اضرب حتى أتأدّب» على الرغم مما يقاسيه من الألم!

ضرورة تقبّل مرارة الصلاة ومشقّتها

أعتذر إنْ أنا شبّهتُ الصلاة بهذا التشبيه، فهي ـ على أية حال ـ مُرّة بالنسبة إلى البعض. أنا أنصح كل من يرى الصلاة ملولة تبعث على السأَم أن يخاطب ربّه أثناءها: «إلهي، لا بأس إذا أنا تململتُ من الصلاة. فها أنا أقف بكل ثبات». وبمجرّد أن تشعر بالملل وتحدّثك نفسُك بإنهاء الصلاة بسرعة فكرر ـ إذا كنت في السجود على سبيل المثال ـ ذِكرَ «سبحان ربي الأعلى وبحمده» ثانية. فهل «عصا الله» مؤلمة إلى هذا الحدّ يا ترى؟! لا تخشَ الصلاة. لا

١- إشارة إلى مثَل عامّي منظوم بالفارسية يقول: «چوب معلم كله، هركه نخوره خله» ومعناه: «عصا المعلم كالعسل، مَن لا يجرّبها فهو أبله».

تهرب منها. ولا تبحث عن حلاوتها، لأنك إن بحثتَ عنها فستقول لنفسك: «سأصليها متى ما لمستُ فيها حلاوة». إذًا فلتتجرّع مرارة الصلاة.

فالصلاةُ لا تُعلّم الإنسانَ الأدبَ إلا إذا تحمّل مصاعبها. فحتى إن لم تَرَ في نفسك الرغبةَ في الصلاة فقم لأدائها بكل عزم وإصرار. وإذا رأيتَ أنك تُسرع في وضوئك فقل لنفسك: «على رِسلِك، توضّأ على مهل. هذا غير مقبول منك. بل أعِدْ وضوءك». أي عليك أن تخالِف هواك. وهذا ما يُدعى «مجاهدة النفس». فكم تحلو مجاهدة النفس إذا كانت من أجل عبادةٍ كالصلاة!

الارتباط بين الصلاة الجيدة وظهور صاحب الأمر

نرى أحيانًا أن فلانًا من الناس لا يجاهد نفسه من أجل صلاته، أي لا يصارع هواه ويعارك نزواته في سبيلها، وإذا به يخاطب ربّه قائلًا: «إلهي، رُدّ إلينا إمام زماننا»! لكن الإمام عجل الله فرجه الشريف إذا أتى فسيتوجّب عليك، يا

هذا، الخروج معه للجهاد. فإذا كنت عاجزًا عن تخصيص دُقَيقات من وقتك لربك ولصلاتك فكيف تريد الخروج معه عجل الله فرجه الشريف لتجود بنفسك؟!

فما لم نفرّغ وقتًا لصلاتنا فمن غير المعلوم أن يظهر صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف أصلًا. أما إذا تغيّرَت حالنا نحو الأحسن فسيظهر إن شاء الله. ذلك أنه عجل الله فرجه الشريف لا ينتظر أن يصلُح العالَم أجمع كي يظهر، بل يكفي أن يصلح حال شيعته ويتورّعوا عن المعاصي. ولذا فقد قال عجل الله فرجه الشريف: «**فَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهُمْ إِلاّ مَا يَتَّصِلُ بِنَا مِمَّا نَكْرَهُهُ وَلا نُؤْثِرُهُ مِنْهُمْ**»[1] [لا يمنعنا من الظهور إلا ما يصلنا عن شيعتنا من أخبار نكرهها].

١- الاحتجاج، ج٢، ص٤٩٩.

كربلاء مركز التأدّب

لقد كانت كربلاء مهدًا للتأدّب، فلقد اجتمع أصحاب الحسين عليهم السلام ذوو الأدب والوفاء ليلة عاشوراء في خيمة حبيب بن مظاهر وتعاهدوا على أن يكونوا غدًا أول البارزين لقتال العدو، وأن لا يدعوا بني هاشم ينزلون إلى الميدان ليُقتلوا ما داموا هم أحياء[1]. لهذا فحينما أراد بنو هاشم الخروج للقتال استوقفهم الأصحاب قائلين: «وهل مُتنا نحن يا ترى؟! لا بد أوّلًا أن نُقَطّع نحن إربًا إربًا كي نستطيع القول في حضرة بارئنا: إلهي، إنّنا لم نكن أحياء حين نزل أولاد الحسين عليه السلام لمقارعة العدو»! كم هي رائعة مَشاهد الأدب هذه.

عليك بالتماس الأدب من سيّد مؤدَّبي العالَم أبي الفضل العباس قمر بني هاشم عليه السلام. فلقد كان

١- معالي السبطين للمازندراني، ج١، صص٣٤٠ ٣٤٢.

قمةً في الأدب حتى إنه لم يكن يقول لأخيه الحسين عليه السلام: «يا أخي»، بل: «يا سيدي ومولاي»!

والعشّاق سيرتهم التأدّب دومًا. فإن شئت بلوغ مقام العشق فعليك أن تبتدئ بالأدب.

يا أبا الفضل العباس عليه السلام، أعنّا عسى أن نصلّي ركعتين بأدب.

آثار وفوائد الصلاة بأدب

الفصل الرابع

من شأن الصلاة المؤدّاة بأدب أن تزوّدنا بفوائد ومصالح لا تُعدّ ولا تحصى. فلماذا لا ننتفع منها إذاً؟ فحينما نكون قادرين ـ عبر مراعاة بعض الملاحظات البسيطة ـ على أداء الصلاة بطريقة مؤدّبة والاعتراف من آثارها وبركاتها فما الداعي إلى عدم قيامنا بذلك؟ فإذا نحن التفتنا جيدًا إلى ما يحمله لنا أداءُ الصلاة بأدب من منافع ومكاسب فمن الطبيعي أن نتحمّس لذلك.

وإن للصلاة المؤداة بأدب آثارًا وفوائدَ جمّة نشير فيما يلي إلى بعضٍ منها:

١. زوال الكِبْر

إن أهم مكسب نجنيه من الصلاة، أو بالأحرى أهم أثر تتركه الصلاة فينا في بداية الطريق، هو «إدراك عظمة الله عز وجل»[1]. وإن العقبة الرئيسة أمام إدراك عظمة الله هي صفة التكبّر والكبرياء فينا. وفي ميسورنا إزالة هذا الكبر أو الحدّ منه عبر الإتيان بالصلاة بأدب.

فاطمة الزهراء: وجوب الصلاة للتنزيه عن الكِبر

تقول سيدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام: «**فَفَرَضَ اللهُ.. الصَّلاةَ تَنْزِيهًا عَنِ الكِبْرِ**»[2]. إذًا فالصلاة إنما شُرّعت لتطهير قلب الإنسان من التكبّر.

الصلاة بأدب هي أن تقول: «إلهي، أنا أُراعي الأدب كي تستحوذ هيبتُك على نفسي، وتزول الأنانية والكِبر من قلبي». فلقد جعل الله الصلاة

١- لقد سبق أن أوضحنا هذه الفائدة وهذا الأثر في الفصل الثاني.

٢- من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٥٦٨.

بحيث إننا غالبًا لا نرغب في أن نبادر إليها بمجرد أن يرتفع الأذان. لكنك إذا ما دُست ـ في لحظة الأذان ـ على قلبك من أجل ربّك فستلين ـ شيئًا فشيئًا ـ قساوتُك ويتحطّم كبرياؤك.

ابدأ في أداء الصلاة بأدب واستمر عليها لمدّة. وقل: «إلهي، هل صلاتي جميلة؟ انظر إلَيّ كيف أقف بأدب، ولا أحرّك يداي». وأيًّا كان الذكر الذي تردّده أو يردّده إمام الجماعة فلتُدقّق في حُسن صلاتك، ولتقل: «إلهي، لقد حسَّنتُ قراءة صلاتي من أجلك، وإلا فإني لا أُحسن حتى لغتي العادية. شاهِدني كيف أُعفّر خدي في التراب على بابك وأمرّغ وجهي على التراب بين يديك. أَوَلستُ كائنًا مهمًّا ذا قيمة؟ أوَليس قد شَقِيَ إبليس حين رفض السجود لي؟ أجل، إنّ لي قيمة عندك، غير أني قد هويتُ على الأرض من أجلك».

وحينما تضع جبهتك على التراب أمام خالقك ساجدًا، لا ترفعها بكل بساطة، وقل:

أَوَلَستَ تهوَى أن ترى تعفيرَ خَدّي بالتُّرابْ؟

أو أن تراني هالكًا في نظرةٍ بالي الثِّيابْ؟

ها قد صُرِعتُ على صَعيدِ الأرض مَغشِيًّا عَلَيَّ

ها قد هَويتُ ببابِ جودِك ساجدًا فانظُر إِلَيَّ

محو التكبّر ثمرة التأدّب بين يدي الله

قد يقول قائل: «ما فائدة حفظ الأدب في الصلاة أصلًا؟ ما حاجة الله لأدبنا؟ هل ينقص اللهَ شيءٌ إذا نحن لم نراع الأدب معه؟ لماذا يُفرض علينا التأدّب فرضًا؟ فالله مطّلع على كلّ شؤوننا، وخبير بإساءتنا للأدب. فنحن ـ مثلًا، وفي كثير من الأحيان خلال ساعات يومنا ـ نمدّ أرجلَنا ونستلقي أمام الله، فلِمَ يتحتم علينا أن ننهض فجأةً ونقف منتصبي القامة

قدّامه؟ دع علاقتنا بالله على حميميّتها، واترك القلوب تعشق ربها. لماذا تخوّف الناس من الله بكلامك هذا»؟!

وإنه لَيتعيّن القول لهذا الشخص: «ألا ترغب في أن تعشق الله؟ إن أول شرط للهيام بالله هو زوال التكبر من أعماقك. صحيح أنه لا حاجة لله بأدبك، وأنه يرى إساءاتك، لكنك إنْ وقفتَ - بين الحين والآخر - على بابه بتأدّب، سُحق تكبّرُك أمامه وزال تدريجيًا».

فأول خطوة يخطوها المرء على طريق محبّة الله واكتساب البصيرة والمعرفة هي أن يتخلّص قلبُه من التكبّر. فالإنسان مخلوق يرغب في أن يكون كالله. إنه يودّ لو يكبُر، بل لو يصير ربًّا. إذًا عليه أولًا أن يأتي إلى باب ربه ليخلع كبرياءَه، ذلك لأنّ أول نقص لا بدّ أن يزول من أعماقه هو التكبّر.

من أجل هذا فإن أول ذِكر ننطق به إذا قمنا إلى الصلاة هو: «الله أكبر»، وكأنّ لسان حالنا يقول: «إلهي، أنت الكبير، لا أنا. إني أمامك في منتهى الضآلة. بل إن الدنيا كلّها حقيرة بين يديك. بك يليق الكبرياء والتكبّر، أما أنا فأقف على بابك ذليلًا مهينًا».

الإنذار من التكبر في القرآن والسنة

لا ينبغي التغنُّج لمن يريد مخاطبة الله: «إلهي، أنت كبير». فإن رغبتَ في أن تُعلن عن حقارتك فعليك أن تكون ذا أدب. إذ إن جدوى التأدب بين يدي الله هو اجتثاث التكبّر من القلب، التكبّر الذي هو على درجة عظيمة من الخطورة، حسب الآيات والروايات، حتى قيل: «**أَكْثَرُ أَهْلِ جَهَنَّمَ الْمُتَكَبِّرُونَ**»[1]، وإنّ أسوأ أماكن جهنّم جُعلَت للمتكبّرين[2]. بل إن أشد آيات

١- عن رسول الله صلى الله عليه وآله، ثواب الأعمال، ص٢٢٢.

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِيًا لِلْمُتَكَبِّرِينَ يُقَالُ لَهُ سَقَرُ شَكَا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ شِدَّةَ حَرِّهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ أَنْ يَتَنَفَّسَ، فَتَنَفَّسَ فَأَحْرَقَ جَهَنَّمَ» (الكافي، ج٢، ص٣١٠).

العـذاب قسـوةً، والدالّة علـى الخلود في جهنـم والبقاء في العـذاب، جـاءت خطابًـا للمتكبّرين[1].

فالكِبْـر هـو علـى جانـب مـن الخطـورة حتّـى قـال رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه: «**مَـنْ مَـاتَ وَفِـي قَلْبِـهِ مِثْقَـالُ ذَرَّةٍ مِـنْ كِبْرٍ، لَـمْ يَجِدْ رَائِحَـةَ الجَنَّـةِ إِلاّ أَنْ يَتُوبَ قَبْـلَ ذَلِـك**»[2]. والمقصـود بهـذا الكِبـر، بالطبـع، هـو التكبّـر فـي مقابـل الحـقّ وعلى ولـيّ الله، لا مـا يُتعارف بيـن النـاس مـن أنـواع الكِبْـر الطفيفـة والعاديـة[3].

يقـول أحدهم: «شـيخنا، أريـد أن أعلّـم وَلَدي أصول العقائد».

١- ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (سـورة غافـر، الآيـة ٧٦).

٢- الأمالي للطوسي، ص٥٣٨.

٣- عـن أبـي عبـد الله عليـه السـلام قـال: «لا يَدْخُـلُ الجَنَّـةَ عَبْـدٌ فِـي قَلْبِـهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِـنْ خَـرْدَلٍ مِـنْ كِبْـرٍ، وَلا يَدْخُـلُ النَّـارَ عَبْدٌ فِـي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّـةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِـنْ إِيمَـانٍ. قُلْـتُ: جُعِلْـتُ فِـدَاكَ، إِنّ الرَّجُلَ لَيَلْبَـسُ الثَّوْبَ وَيَرْكَـبُ الدَّابَّةَ فَيَكَادُ يَعْـرِفُ مِـنْ نَفْسِـهِ الْكِبْـرَ. قَـالَ: لَيْـسَ ذَلِـكَ بِكِبْـرٍ، إِنَّمَـا الْكِبْـرُ إِنْـكَارُ الحَـقّ، وَالإِيمَـانُ إِقْـرَارٌ بِالحَـقّ» (ثواب الأعمـال، ص٢٢١-٢٢٢).

- «على مهلك يا رجل! انظر أولًا إن كانت مشاعر ولدك وعقله وقلبه سليمة أم لا»؟

- «أعلّمه، يا شيخنا، ليتبيّن لي ذلك».

- «لا تتسرّع. اعمل - عوضًا عن ذلك - على حثّ ولدك على الصلاة حين يكون في السابعة من عمره[1]. فإن أخذ يصلّي فسيَسلَم قلبه وعقله، ويتهيّأ حينذاك لتلقّي أصول العقائد».

- «وما الذي يدركه ابن السبع سنوات من أصول العقائد كي يصلّي»؟!

- «يدرك قليلًا منها، وهذا يكفيه. فمن الضروري، في الوقت الحاضر، طرد الكِبْر من قلبه، ذلك أنّ أساس مآسينا ناشئة عن تكبّرنا تجاه ربّنا، وعلينا أوّلًا

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله مخاطبًا لأولياء الأطفال: «مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُم أَبْنَاءُ سَبْعٍ..» (عوالي اللآلي، ج١، ص٣٢٨).

إزاحـة هـذا التكبّر. وإنّ ثمـرة مراعـاة الأدب هي اقتلاع الكِبـر مـن نفوسـنا، وإلباسُـنا لبـاسَ التواضـع بين يدي ربّنا».

الصلاة بنيّة سَحق التكبر

يريـدك الله تعالـى أن ترسّـخ صفـة التواضـع فـي نفسـك. مـن أجـل ذلـك يتوجـب عليـك أن تصلـي بقصـد سـحق تكبّـرك على بـاب بارئـك. ولا يسـتدعي هـذا القصـد إقبالًا أو حـالًا معنوية، لا بـل إنك إذا قمت للصـلاة فور ارتفـاع الأذان علـى رغم إدبـارك عنها فإن ذلـك أكثـر فائـدة فـي سـحق تكبّرك.

قـل لربـك: «إلهـي، إن أرَدتَ ضربـي، فأنـا عبـدك وطـوعُ أمـرك. أرأيتنـي كيف أقـف للصلاة بـكل أدب؟ صحيـح أن قلبـي الآن فـي محـل آخـر، لكـن كبريـاءه يُطحَـن تحـت حجَـر رَحـى الصـلاة».

ـ «مـا هذا الـكلام الذي تقولـه حال الصـلاة يا رجل! حـاول فقط أن ينصـبّ التفاتُك إلـى الله أثناءها».

ـ «يا هذا، المسافة تطول حتى نصل إلى مرتبة لا نلتفت فيها أثناء الصلاة إلا إلى الله تعالى. دعنا نحصل على بعض سجايا الآدميّين أوّلًا. فمجرد صلاتنا بأدب تعني أننا ندخل حيّز الآدميّة شيئًا فشيئًا».

صَلِّ فترة من الزمن بأدب وسيزول التكبّر من قلبك دونما منبر أو موعظة. وستشرق شمس الله من قلبك دفعة واحدة، وتشرع ـ أنت ـ بحبّه عز وجل، وينمو هذا الحب إلى درجة أنك لا تستطيع البوح بمداه لأحد. إنك ستبلغ من الهيام بالله مبلغًا لا يتسنى لك معه أن تُطلع أحدًا على ما تقاسيه بسببه.

٢. عظمة اللهِ وحقارةُ الدنيا في القلب

تبدّد الحُجُب بسبب الصلاة

بعد أن حطّمَت الصلاة المؤداة بأدب تكبّرَك على ربك فإنها ستقذف عظمة الله تعالى وكبرياءه في قلبك وتُلقي ظِلَّهما الوارف عليه. فإن تسرّبَت عظمة

البـاريء عـز وجل وجلالـه إلى النفـس، تحقّقـت طهارة الباطـن، ونشـأت المحبّـة لله، وانبعثَـت المعرفـة بـه، وتغيّـر كل مـا فـي الدنيـا فـي عين الإنسـان.

فـلا تعجَـب إن رأيـت آلاف الحُجُـب السـميكة التي كانـت تَغشَـى بصـرَك تـزول بتأثيـر الصـلاة. فالحيـاة الدنيـا لا تعـود حجابًـا لمن امتلـك البصيـرة، وليس في ذلـك مـا يثيـر العجب.

ـ «هنـاك رجـل يسـتطيع أن يخبـر المرءَ عن مشـكلته بمجـرد النظـر إليه».

ـ «حسَـنًا، لعلّـه يُحسِـن صلاتـه! فـإذا بـرئ الإنسـان مـن التكبّـر وحـلَّ كبريـاءُ الله فـي قلبـه فسـتحصل لـه أمـور جميلـة».

لكـن، برأيك، هـل لا بد ـ فـي بداية الأمـر ـ أن يَعظُم الله تعالـى عنـد الإنسـان أم أن يهـونَ غير الله فـي نظره؟ صحيـح أن هذيـن الأمريـن ككفّتَـي الميـزان تمامًـا، إذا

ارتفعت إحداهما انخفضت الأخرى، لكن أيهما ينبغي أن يحصل أولًا؟

هل لا بد في البداية أن تسقط الدنيا من عين الإنسان، أي أن يقال له: «نلتمسك يا هذا، أن تُقلع عن الحسد، وتترك الحرص، ولا تتحسّر، فإن المرء توّاق إلى ما لم ينَل، وأن تهدّئ من روعك، فإنّ الدنيا يومان، وما في المعصية من لذة،...الخ»؟ هل يجب أن يقال كل هذا للمرء كي تصغر الدنيا في عينه ولا يفسد بحبها؟ أم أنه لا بد أن يصبح الله عظيمًا عنده أولًا؟

عظمة الله مقدَّمة على حقارة الدنيا لدى الإنسان

جواب هذا السؤال نجده في الكلام البليغ لأمير المؤمنين علي عليه السلام في وصف المتّقين حيث يقول: «**عَظُمَ الخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِم**»[1]؛ أي لا بد أن يعظم

١- نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

الله في أنفسهم أولًا، ومن ثم تهون الدنيا وما سوى الله في أعينهم ثانيًا.

إذًا عليك ـ كخطوة أولى ـ أن تتيح لعظمة الله سبحانه وتعالى أن تسيطر على نفسك. كيف يحصل هذا؟ يحصل من خلال أداء الصلاة بأدب. فإذا استقرَّت عظمة الله وجلاله في قلبك فسيصغر ما دونه في عينك.

لكن ما هي الثمرة التالية لذلك؟ يقول عليه السلام تتمة لكلامه أعلاه: «**فَهُمْ وَالجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ**». أمثال هؤلاء يرون الجنة والنار الآن، فما بالك برؤية باطنك، ومعرفة ما يكون في آخر عمرك، ومشاهدة ما يوجد خلف الحائط!

لا تُلقِ للدنيا بالًا. ألا ترى كيف تتضاءل في عينك وتتهاوى أمامك!

ـ «وكيف لي أن لا أُلقي لها بالًا؟! وكيف لي أن أقطع تعلّقي بها»؟!

ـ «لا بد أن يكون الله عظيمًا في قلبك».

ـ «وكيف يكون ذلك»؟

ـ «بأداء الصلاة بأدب».

حب الدنيا منشأ كل التعاسات

إنّ كل ما نشكوه من تعاسة ـ من أشكال المآسي، وأنواع التوترات العصبية، وألوان الكآبة ـ ناجم عن تعلّقنا بالدنيا[1]. فهل تظنّ أن على الشيعي المؤمن تناول الأقراص المهدئة للتخلص من الاضطراب والكآبة؟! بل لماذا ـ أساسًا ـ ينبغي أن يصاب المؤمن بقرحة المعدة أو قرحة الاثني عشري بسبب التوتر العصبي؟! فما القصّة يا ترى؟! أوَلسنا نملك إلهًا يهدّئنا ويبعث فينا الطمأنينة؟! ألا يقول الله تعالى:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِ خَطِيئَةٍ» (مصباح الشريعة، ص١٣٨).

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1]؛ أي لا تطمئن القلوب إلا بذكر الله؟! لعل هذه القلوب قد تحوّلت إلى حجارة، وإلاّ فإن أثر الله سبحانه لا يزول.

الحل الوحيد هو الصلاة بتأدب

ليس أمامك سوى حل واحد، وهو أن تكون ممَّن: «**عَظُمَ الخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِم**». لكن كيف لك الوصول إلى ذلك؟ هو بأن تولِّد عظمة الله وجلاله لنفسك حال الصلاة؛ وذلك ـ مثلَا ـ بأن لا ترفع رأسك من السجدة بمجرد وضع جبهتك على موضع السجود مثل النابض الحلزوني. إذ يبدو وكأنّ البعض قد وُضع تحت تربته نابض حلزوني، فهو يرفع رأسه من على التربة بمجرّد وضعه عليها. فهل تحسب هذا النمط من الصلاة صلاةً بأدب؟!

إذًا لا بد من الإتيان بالصلاة بأدب، وأثر مثل هذه الصلاة هو أنها تقذف عظمة الله في قلب الإنسان،

١- سورة الرعد، الآية ٢٨.

وهـو مـا يـؤدي بالتبَـع إلـى تصاغـر الدنيـا فـي عينـه. فالصـلاة بـأدب إذًا تبعـث علـى تضـاؤل الدنيـا في عين ابن آدم.

٣. بناء شخصيّة الإنسان

مـن الآثار الأخـرى للصـلاة المـؤدّاة بأدب هـي أنها تنسّـق علاقتـك بنفسـك، فهـي تبنـي إنسـانًا مسـتقلًا ذا إرادة، يسـتطيع الوقـوف علـى قدميـه، ولـه وزن. فالإنسـان المسـتقلّ الـذي يملـك الإرادة يرسـم ـ فـي مواطـن معيّنـة ـ منهجًـا لنفسـه، ويحـارب هواه. إنسـانٌ كهـذا إنسـانٌ مسـتقلّ أوّلًا، ويمكـن الاعتمـاد علـى محبّتـه ثانيًـا، ومـن الميسـور الاتّـكال علـى عقلـه ثالثًا.

خطوبة افتراضية بعد عشرين عامًا

لا بـأس هنـا أن أروي قصّـة خطوبـة افتراضيـة مـن المحتمَـل أن تقـع بعـد عشـرين عامًـا. وأنـا أنصـح الشـبّان المقبلين علـى الزواج أن يبـادروا إليه الآن، لأنّ الـزواج فـي السـنين القادمـة سـيكون عسـيرًا.

بعد عشرين عامًا من الآن سيتّجه الناس، جميعهم أو أكثرهم، نحو الدين ويترقّون كثيرًا في فهمهم له. في مثل تلك الأجواء يذهب شاب، لا يهوى الارتباط بعائلة متديّنة، للتفتيش عن أُسرة قليلة التديّن كي يطلب يد ابنتهم قائلًا في ذات نفسه: «فَلأُرِح بالي وأتناسب مع عائلة لا يعيبُني عليها لا أصحاب اليمين ولا أصحاب الشمال!». فهو يرغب في أن يُقبِل على خطبة فتاة من عائلة غير متديّنة نسبيًّا ليعيش قرير العين.

الفتاة: هل تصلّي أوّل الوقت؟

وأثناء جلسة الخطوبة قيل للخطيبين: «أيّتها الآنسة، وأنت أيّها الفتى، اجلسا وتحدّثا معًا لتريا إن كنتما ترضيان ببعضكما أم لا».

وبعد أن خلا لهما الجو التفتَت البنت إلى خاطبها وسألته: «أيّها الفتى، هل تصلّي أوّل الوقت؟»

فقال الشاب وقد تفاجأ بسؤالها: «ما شأنكِ بصلاتي في أوّل الوقت؟! هل أنتِ إمام مسجد؟! أم

لعلّي أُجري مقابلة لقبولي في الحوزة العلميّة! ثمّ تعالي وخبّريني، هل تصلّين أنت أساسًا كي توجّهي إليّ هذا السؤال؟!»

ـ «لا، لستُ أصلّي بتاتًا، أنا أسألك أنت إن كنت تصلّي في أول الوقت أم لا؟»

ـ «من الطبيعي أن لا أصلّي أوّل الوقت. إنّني لا أصلّي إلاّ في بعض الأوقات، فما بالك بالصلاة لوقتها!»

ـ «من وجهة نظرِك، هل تؤمن بضرورة إطاعة أوامر الله؟»

ـ «أجل.. كوجهة نظر ليست لدَيّ أي مشكلة مع الصلاة، لكنني لا أجد في نفسي الميل إليها على الدوام، أو الإتيان بها في أول وقتها».

ـ «إذًا فجوابي هو الرفض. عُذرًا.. رزقكَ الله بفتاة أخرى!»

فيقـول الفتـى وهـو في منتهـى الدهشـة: «لكـن لماذا تركّزيـن علـى صلاتـي بالـذات؟! اطلبـي منّـي الحـب. اطلبـي منـي العشـق. اطلبـي منـي العقـل والشـعور. اطلبـي منـي النظـام والأدب والنظافـة. اطلبـي منـي المـال. اطلبـي منـي أمـورًا مـن هـذا النمـط. مـا الـذي تطلبينـه منـي مـن بيـن كل هـذه الأمـور؟»

الصلاة في وقتها دليلٌ عدم الانقياد للهوى

ـ «لسـتُ أطلـب منـك سـوى شـيءٍ واحـد.. الصـلاة. بالطبـع إذا اقترنَـت الصـلاة بالحـبّ، والصفـاء، والوفـاء، والمـودّة فمـا أروع ذلـك. لكنّـك إنسـان لا يمكـن الاعتمـاد عليـه بـأيّ حـال مـن الأحـوال! لأنّ المـرء إذا قيّـد نفسـه بالصـلاة صـار مـن المعلـوم أنّـه ليـس منصاعًـا لهـواه، وأنّـه قـد سـحقَ هـواه ولـو بمقـدار صـلاةٍ واحـدة يصلّيهـا أوّل وقتهـا. كيـف لـي أن أطمئـنَّ لـك؟! أحببتَنـي اليـوم، ومـن الممكـن أن تحـبّ غيـري غـدًا. أتيتنـي اليـوم طاعـةً لقلبـك، وسـتدوس علـيَّ غـدًا طاعـة لقلبـك

أيضًا! فما لم تلتزم بالصلاة فإنه ليس لي أن أطمئنّ لك!»

الملفت أن الفتاة تعترف له قائلة: «عن نفسي، أنا لا أُؤمن بالله ولا برسوله، لكنني أريد زوجًا يدوم لي كآدميّ! ها أنت تؤمن بربّك، فما بالك لا تصغي لأوامره؟! من المؤكّد أنّك تعصي أمره طاعةً لهواك، وأنا لست مستعدّة للعيش مع من يعبد هواه. فما لم تطَأ نفسَك وتدُس على أنانيّتك بالصلاة، فأنت لستَ من العاشقين. أُقسم بالله إنّك تكذب إن ادّعيتَ محبّتي. أنت مُحبّ لهواك، وغدًا ستكرهني، أنا البائسة، اتّباعًا لهواك أيضًا!»

ما قرأتَه أعلاه حوار بين شابّ وشابّة في مجلس خطوبة من المحتمل أن يجري بعد عشرين عامًا من الآن. نسأل الله أن تسير أجواء مجتمعنا بعد هذه المدّة بهذا الاتّجاه، وذلك حينما تبدأ آثار أداء الصلاة بتأدّب بالظهور على حياة الإنسان وشخصيّته.

هاجسٌ في محلـه تمامًا تحمله هـذه الفتاة إذ تقـول: «إنّك لا تقابـل الـربّ ـ الـذي أغـدق عليك كل هـذا العطـف ـ حتّـى بمثقـال ذرّة مـن أدَب! فكم ـ يـا تـرى ـ سأستطيع أن أمنحَـك مـن الحـبّ إنْ أصبحتُ زوجتـك كـي تكـون مؤدّبًـا معـي وتلبّـي طلباتـي علـى الأقـلّ؟! إنّك غير مبالٍ بربّك، فكيف ستكون وفيًّا معـي؟!»

هل تفي معي وأنت غير مبالٍ بربك؟!

الشـاهد الأبـرز علـى هـذا الموضـوع يمكنـك مشاهدته اليوم في العالـم الغربـي الـذي بـات أهلـه كالذئـاب ينهـش بضعهـم بعضًـا. وكـن على ثقـة بأنه لو طُـرح هـذا الكلام وسـط لنـدن وباريـس وسـائر المدن الأوروبيـة لاجتـذب بريقُـه أهـلَ تلـك الديـار بأضعاف مـا يجتـذب أهـل بلدنـا، وذلـك لمـا يقاسـيه الغربيّـون مـن مستوى الدنـاءة والخسّـة المتفشّـية بينهـم. فلقـد سئموا من جفـاء بعضهـم بعضًـا، وثبت للجميـع هناك أنـه لا أثـر للحنـوّ والعاطفة فـي مجتمعاتهم. فـإنّ الذي

يُخاف على كلّ فرد من أفراد مجتمعنا من الوقوع فيه شيئًا فشيئًا، ألا وهو سلوك سبيل المعصية والعزوف عن الصلاة، قد سلكَها الفردُ الغربيّ إلى نهايتها، حتّى أحسّ بؤسَه وشقاءَه بكلّ ذرّة من كيانه، وبات ملولًا سَئِمًا منه.

لا حُبّ إلا في قلب انتفض على نفسه

الإنسان الغربي على استعداد للعيش مع كلب، أو قطة، أو جُرذ لكنه ليس مستعدًّا للعيش مع رجل أو امرأة تحت سقف واحد؛ فالكلّ هناك ـ تقريبًا ـ يخون الكلّ، وما من أحد منهم بقادر على محبّة أحد. إنّها البلوى التي أنزلها الصهاينة على الغربيين التعساء.

فأين هو الحبّ إذًا؟ الحب إنّما يُعثر عليه في القلب الذي انتفض على نفسه، والعشق إنّما يوجد في الفؤاد الذي ثار على هواه، والوفاء والنقاء إنّما يُشاهَدان في إنسان هبّ لمجاهدة نفسه. ألا وإنّ الحد الأدنى لمجاهدتك نفسَك هو أن تؤدي الصلاة بأدب في أوّل وقتها دون أن تُنقص منها شيئًا.

آثار وفوائد الصلاة بأدب

ألا يتسنّى مجاهدة النفس إلا في الصلاة؟!

ورُبّ سائل يسأل: «أفلا يمكن أن نحارب هوانا لتصفو نفوسُنا ويعمرَ قلوبَنا الحبُّ في موضع آخر غير الصلاة؟ ففي حياتنا الكثير من الفرص التي ننهض فيها لمجاهدة أنفسنا ومصارعة هوانا، وإنّا إذا فعلنا ذلك انخفض انقيادنا للهوى، وانخرَطنا في زمرة العاشقين، واستطعنا أن نمنح الناس المحبّة».

ويعترض: «وهل جُمعَت مقارعة الهوى كلّها في الصلاة في وقتها وبأدب كي تزعم أنّ الفتاة حينما سألت خطيبها عمّا إذا كان يصلّي أوّل الوقت وجاء الجواب بالنفي ردّت عليه: يا عبد هواك! يا عديم المحبّة والرأفة! أيّها الأنانيّ!.. وبعبارة أخرى انهمرت على الخطيب كلّ تقريعات العالم دفعة واحدة! فهل تنحصر مجاهدة النفس في الصلاة وحسب؟!»

ثمّ يورد مثالًا ظنًّا منه أنّ فيه ما يعزّز اعتراضه: «ففي إحدى المرّات مثلًا كنتُ أقترب من إشارة

ضوئيّة حمراء، وحدّثتني نفسي بالضغط على دوّاسة البنزين واجتياز الإشارة، فجاهدت نفسي، وتوقّفت، على أنّ شرطيّ المرور كان واقفًا عند التقاطع أيضًا».

فأقول له: «لقد أجبتَ على إشكالك بنفسك يا عزيزي، فلو لم يكن الشرطي عند التقاطع هل كنتَ ستتوقف أيضًا؟! لهذا السبب فإن مجاهدتك لنفسك في أيّ موضع غير الصلاة ليس لها مثل قيمتها في الصلاة. فأينما حاربتَ نفسَك فأتيتَ بعمل صالح تعال إلَيّ لأُثبت لك أنّ شائبة قد شابَت عملك ذاك؛ فإمّا أن يوجد شرطيّ يقف عند التقاطع، أو تكون ثمّة لذّةٌ ما دفعتك إلى ذلك».

مجاهدة النفس في غير الصلاة غير خالصة

وقد يقول آخر: «أنا شخص شديد الأدب. فقد أفكّر في مدّ رجلي أمام الضيف لكنّني أمنع نفسي من ذلك وأتحمّل رغم تعبي الشديد».

فأقول له: «طيّب، ومن هو ضيفك؟»

- «مدير دائرتي».

- «وهل تريد يا حبيبي أن تمدّ رجلك أمام مدير دائرتك أيضًا؟!

فهل إنك ستُقدِم على فعل شيء أو تجاهد نفسك يا ترى إذا لم يحفّزكَ طمعٌ في نفع أو خشيةٌ من ضرر مُحدق؟! فما لم يجلب لك الفعلُ نفعًا أو يدُرّ عليك ربحًا فسوف لا تحرّك ساكنًا. إنّها الصلاة فقط التي ليس فيها لك أيّ لذة، ولا يلقي أحدٌ لك بالًا إذا أدّيتها. فلكثرة المصلين هذه الأيام، ولله الحمد، فإنك مهما صلّيت فسيقال لك: ثمّ ماذا! لقد أصبحتَ لتوّك مثل الباقين!

من هنا فإنّ أوّل خطوة على طريق الإخلاص تتمثّل في الإتيان بالصلاة بإخلاص، وهذا قوله

تعالـى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

إنّـك، يـا هـذا، غيـر قـادر علـى مجاهـدة نفسـك مـن أجـل الصـلاة، فهـل تريـد مجاهدتهـا فـي مواضع أخـرى؟! أتَخدَعُنـا أم تخـدع نفسـك؟!»

أتـدري ما الذي سـيحصل لو انتشـر مثل هـذا الكلام فـي المجتمـع؟ لـو حصـل هـذا فسـوف لا يمـرّ وقـت طويـل حتّـى ترفـض الفتيـات كل خاطـب لا يصلـي صلاتـه في وقتهـا وعلـى أصولهـا، وسـيقُلنَ: «إنّ آدميّة هذا الشـاب ـ أساسًـا ـ محطّ شك واسـتفهام». فالقضيّة ـ فـي النهايـة ـ ليسـت مزاحًـا، إنّها حيـاة مشـتركة تدوم عمـرًا، ومـن الطبيعـي أن يتعاطيـنَ مـع هـذا الموضـوع المهـم بتحفّظ.

١- سورة الأنعام، الآية ١٦٢.

الإمام الحسن: زوّج ابنتك من رجل تقي

جاء رجل إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام يستشيره في تزويج ابنته فدار بينهما حوار كان مضمونه:

الرجل: «لِمَن أزوّج ابنتي؟»

الإمام عليه السلام: «**زَوِّجْهَا مِنْ رَجُلٍ تَقِيّ**».

- «وماذا بعد يا سيدي؟»

- «**هذا وحسب، رجل تقيّ**».

- «وهل التقوى لوحدها كافية؟»

- «**نعم، فإنّ ابنتك إما أن تكون صالحة أو طالحة، فإن كانت طالحة فسيتحمّلها هذا الرجل لأنه مُتَّقٍ ولا يظلمها بينما أما غيره فلا يتحمّلها، إذ ليس ثمّة ما يدفعه لذلك. وإن كانت صالحة فسيكرمها ويعرف قدرها**[1] **أمّا غير التقي فسيتجرّأ عليها ويظلمها ولا**

١- جاء رجل إلى الحسن عليه السلام يستشيره في تزويج ابنته فقال: «زَوِّجْهَا مِنْ رَجُلٍ تَقِيٍّ، فَإِنَّهُ إِنْ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمْهَا» (مكارم الأخلاق، ص٢٠٤).

يعـرف قدرهـا. فالرجـل التقـيّ المؤمـن يضبـط نفسـه، لأنّ الله قـد هيّـأ لـه مـا يكفـي لإزعاجِـه وسـلبِه راحتَه!»

نسـمع مـن بعـض الآبـاء قولهـم: «الحمـد لله، لقـد التحـقَ ولـدي بالجنديّـة فصـار ليّنًـا سـهلًا». وأريـد هنـا أن أحلّـل سـبب هـذا التحـوّل. ففـي العسـكرية ينهالـون علـى الجنـدي بوابـل مـن صواريـخ الإزعـاج المضـادّة للراحـة والدَّعَـة كـي يتمكّـن، وسـط هـذه المشـاق، مـن رمـي العـدوّ بقذيفـة إزعـاج تسـلُبُه راحتَـه. فمـن كثـرة تشـدّدهم معـه وإزعاجهـم لـه فـي العسـكرية تـراه فـي غايـة السـماحة وليـن الجانـب إذا تـرك المعسـكر، فـلا تـراه يتسـورّ جـدارًا، بـل تجـده يجلـس بـكل أدب، متحلّيًـا بالقـدرة علـى الصبـر والقابليـة علـى التحمّـل.

سبب ليونة الفتى في الجندية

فقبـل أن تؤدّبَنـا العسـكريّة أو أي شـيء آخـر تعـال نتـأدّب بالصـلاة والوقـوف بيـن يـدي الله جـلّ وعـلا، فذلـك أروع بكثيـر، إذ ليـس مـن اللطيـف أن يتـأدّب

المرء بالعصا. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالآدَابِ وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلاّ بِالضَّرْبِ»**[1]. فبماذا يتأدّب الناس؟ يتأدّبون بالصلاة.

أهميّة استقلال الشخصية

جلستُ ذات يوم مع بعض الأعزّة من مسؤولي التربية والتعليم وكانوا يستفسرون عن كيفية تعريف التلاميذ بتعاليم دينهم، فقلت لهم: «لي عندكم رجاء، قبل أن تعرّفوا التلميذ بتعاليم دينه فكّروا في طريقةِ تعليمه كيف يكون مستقلاًّ بذاته، كي لا يستولي عليه الارتباك إذا خرج من باب المدرسة لمجرّد استهزاء أحدٍ به، ولا ينجرف إلى الموبقات بسبب ابتسام بضعة رفاقٍ له، بل يقول: «لا معنى لتشبُّه الإنسان بالآخرين». لقّنوا تلاميذكم كيف يكونون مستقلّين، فإنّهم إذا نالوا استقلالهم سَهُل جدًّا دخولُ الله عزّ وجلّ إلى قلوبهم».

١- نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

خشية السخرية أهمّ عوامل إسفار المرأة

تُبيِّن إحصائيةٌ أُجريت في إحدى الجامعات أن أغلب الفتيات اللاتي تخلّين عن حجابهنّ الرصين واخترن الحجاب الضعيف قد فعَلنَ ذلك تحاشيًا لسخرية الآخرين.

لكن ما شأنكِ يا أختاه وسخرية الناس بك؟! استقلّي بنفسك.. كوني قويّة.. قفي على قدميك.

يقول الإمام الباقر عليه السلام لأحد أصحابه: **«وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لا تَكُونُ لَنَا وَلِيًّا حَتَّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلِكَ، وَلَوْ قَالُوا إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ»**[1]. فإذا لاقاك أهل بلدتك جميعًا بالبِشْر والابتسامة فلا ينبغي لك السرور، وإن اتّهموك بالسوء بلا مبرّر فلا تحزن. فما لكَ يا

١- تحف العقول، ص٢٨٤.

هــذا بــكلام النــاس؟! فــلا يكــون مــن أوليــاء أهــل البيــت عليهــم الســلام إلا مَــن تمتّــع بهــذا القــدر مــن الاســتقلال.

تعال لنرى أين نتمرّس على الاستقلال؟

التمرّس على استقلال الشخصيّة بالصلاة

تمــرَّسْ علــى الاســتقلال ـ مثــلًا ـ عندمــا يكــون المنــزل مكتظًّــا بالضيــوف ويحيــن أوان الصــلاة، فقــل حينــذاك للضيــوف: «عفــوًا، لــدَيَّ شُــغل.. أريــد أن أؤدّي صلاتــي». ولا تقــل فــي ذات نفســك: «لكــن هــذا لا يليــق.. لكــن ليــس مــن اللطيــف أن أفعــل هــذا الآن.. هــذا قبيــح». بــل ولســتَ مضطــرًّا إلــى دعــوة الآخريــن إلــى الصــلاة أيضًــا. حسـبُك أن تقــول لضيوفــك: «تفضّلــوا هــذه الفاكهــة والجرائــد والمجــلات، تناولــوا مــن الأولــى، وتلهّــوا بالباقــي، واســمحوا لــي أن أغيــب عنكــم دقائــق لعمــل مهــمّ، ثــم أعــود إليكــم».

ـ «إلى أين أنت ذاهب؟»

ـ «أنا ذاهب لأُؤَدي صلاتي في أوّل وقتها. فأنا «عبد» ولقد أمرني مولاي بالذهاب. انتظروني دقائق، سأصلّي وأعود إليكم».

ولا شأن لك بالباقي، إذ سيفعل تصرّفُك هذا فعلَه اللازم في الطرف المقابل فيقول مُعجَبًا: «ما أشدّ استقلال الرجل! ما أصلبَه في دينه!».

لماذا يتحرّج بعضنا من بعض إذا اتصل الأمر بأداء الصلاة ؟! علينا أن نتسلّح بالاستقلال، ونقف على أرجلنا بثبات. لا تقل: «لِمَ أصلّي أنا، ولا يصلي هو؟» فلعلّ الله لا يرغب في صلاته، ولربما كان من عباد الله الضعفاء. فما شأنك أنت به؟! نعم، في وسعك الدعاءَ له في صلاتك، بل ولُقياه بوجه بشوش بعدها أيضًا.

٤. إصلاح النفس عبر الصلاة لوقتها

الأذان الخصوصي مطلوب!

ألا تعتقد أنّه لا بدّ أن يختلف «وقت الأذان» من شخص إلى آخر، وأن يتلقّى كلٌّ منا أذانه الخاصّ به بما ينسجم واحتياجاته الروحية؟ أليس من الأفضل ـ مثلًا ـ أن يُعيَّن وقت صلاة كل واحد منّا بأن ينظر الله عزّ وجلّ إلى ظرفِه الخاصّ طيلة يومه وليلته ليرى متى يكون بحاجة إلى الصلاة، وفي أي وقت يتطلّب الانقطاع عن الدنيا، فيجعل وقت أذانه في تلك اللحظة بالذات؟ فمثلًا يرى الله أن أعصابي على وشك أن تتوتّر فيصدر أمره في الحال: «أيّها المؤذن، أذِّن لهذا الشخص، إذ لا بد أن يُنتشل عبر الأذان والصلاة من الحال التي هو فيها». أو يراني ـ تبارك وتعالى ـ على مشارف الهيام بالدنيا فيقول للمؤذن: «هذا الرجل يكاد يُغشى عليه من فرط حبّه للدنيا، فارفع أذانَه هذه اللحظة وأيقظه من غفلته!» أو يراني ـ جلّ شأنه ـ أتكأّب وأغرق في أوهامي

الفارغة وغُصص الدنيا فينادي: «أيّها المؤذّن، بقيَت ساعة من الوقت للأذان، غير أنّي أريدك أن ترفع الأذانَ لهذا الإنسان في هذه الساعة، فهو إن قام إلى صلاته الآن خرج من حالة اكتئابه وانغماسه في غُصص الدنيا».

والواقع إن وقت أذان وصلاة كل واحد منا هو على هذا النحو بالضبط! لا تنظر إلى أن الأذان يُرفع للجميع في وقت واحد. أتتصوّر أن الله عاجز عن أن يعيّن لكل امرئ وقتًا خاصًا للأذان والصلاة بمعزل عن غيره، ثم «تتزامن هذه الأوقات جميعًا مع بعضها؟!» أتحسب أن الله غير قادر على أن يجعل من هذا «الأذان العامّ» نفسه المرفوع على المآذن للناس كافّة أن يجعل منه «أذانًا خاصًا» لكلّ واحد منّا أيضًا؟!

ثمّ هل تظنّ، وأنت ترى الأذان يُرفع للجميع على حدّ سواء، أنّ الله عزّ وجلّ لم يضع في حسبانه في ساعة الأذان أحوالَ كلّ فرد من

الناس ولم يراعِ ظروفَه؟ وهل تعتقد بأن ظروفك وأحوالك الخاصة في لحظة الأذان لم تؤخَذ بنظر الاعتبار حين ارتفاع الأذان العامّ؟ فإلٰهنا هو نفس ذاك الإله الذي قالوا عنه في الدعاء: «**يَا مَنْ لا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ**»[1]؛ أي: يا أيّها الإله الذي يخاطبك الآلاف من البشر دون أن يشغلك كلام أيٍّ منهم عن الالتفات إلى كلام غيره.

بل تخيّل أن الأذان يُرفَع لك وحدَك، واعتبِره رسالةً خصوصيّةً يوجّهها الله إليك. لا تذهب بك الظنون إلى أنّ المؤذّن كلّما رفع الأذان فمعناه أن الله يناديه: «اجمع المصلّين كافة ليصلوا!». لا، ليس هذا المراد من الأذان، بل هو إعلان خصوصيّ.

الصلاة أوّل الوقت تبني الإنسان

قد يسأل سائل: «كيف لي أن أسلك السبيل إلى الله لأكون إنسانًا صالحًا»؟

١- المصباح للكفعمي، دعاء الجوشن الكبير، ص٢٦٠.

- «يقـول الواصلـون: صـلِّ أوّل الوقـت وسـتُصلحك هـذه الصلاة نفسـها».

- «وهــل يمكــن للصــلاة فــي أول الوقــت أن تُصلحنـــي» ؟!

- «متى ما سـمعتَ الأذان اترك أي عمل أنت مشـغول بـه واهـرَع إلـى صلاتـك. فالحالـة الخاصة التـي يكون عليهـا كل إنسـان فـي لحظة ارتفـاع الأذان هـي حالة قد أعدّهـا لـه الله عـزّ وجـلّ مُسـبقًا. فـإذا كان العبد وسـطَ هـذا الظـرف فسـينادي الله ملائكتـه قائـلًا: «أذّنـوا، فإذا نهـض عبدي هـذا لأداء صلاتـه أصبـح آدميًّا».

يكفـي سـاعة الأذان أن تتـرك كل عمـل تشـتغل بـه وتقـوم إلى الصلاة، وسـيكون هذا سـببًا لإزالة سـيّئاتك الواحـدة تلـو الأخـرى. لا تقـل: الأذان للجميـع. فـإنّ علـى كلّ فـرد أن يتصـوّر بـأنّ الأذان يُرفـع لـه وحـده. فـالأذان رسـالة خصوصيّـة تحمـل لكل فرد مـن الأفراد

معنىً خاصًّا. ولا تقل: لقد دعا الله الجميعَ دفعةً واحدة، بل إنه سبحانه قد دعاهم فردًا فردًا، كلٌّ على حِدَة. فإن قال المؤذّن: «الله أكبر»، فهو يخاطبك أنت بها، فلا تظنّ أنه يوجّهها إلى الجميع بشكل عام.

فإذا نهضتَ لحظة سماعك الأذان فجئتَ بصلاتك في أول وقتها انثَلَم طرفٌ من إحدى صفاتك الذميمة أو عيوبك، أو زالت تمامًا، وستضعُف فيك صفة حُبّ الراحة تارةً، ويضمُر حبّ الجاه تارة أُخرى، ويتضاءل الحسَد تارة ثالثةً، ويهزُل التكبّر تارة رابعة، وذلك لأنّ الإنسان ـ في كلّ حين ـ أسيرٌ لواحدة من رذائله، فإنْ هرَع في الوقت ذاته إلى الصلاة في أوّل وقتها عملَت الأخيرة على تهديم هذه الرذيلة في نفسه .

الأذان إعلان خصوصي لانتشال العبد من حالٍ ذميمة

وكأنّ الله ـ بلا تشبيه ـ قد جلس، واضعًا يده تحت حنكه، يرقب عبدَه، منتظرًا سنوح الفرصة التي يستلّه فيها من الحال التي هو عليها، ومترقّبًا أوان

اللحظة التي يُصدِر له الأمر «استعِد» كي ينتزعه مما هو فيه من وضع سيّئ. فهو ـ تعالى ـ يراقبك على نحو موصول، فما إن يراك في حال معيّنة حتى يبادر إلى إصدار الأمر: «أذّن أيّها المؤذّن، فإن قام عبدي الساعةَ إلى الصلاة زالَ عنه عيبُ كذا، أو ذهبَت عنه صفةُ كذا».

فكل أذان هو نداء خصوصيّ يُراد به انتشالك من وضع مُترَدٍّ، فلا تفرّط بهذه اللحظة، ولا تهدر هذه الفرصة الذهبيّة، فإنّ الذي وفّرها لك هو الله عزّ وجلّ، فهو يهيّئ لك ـ عبر الصلاة في أوّل الوقت ـ أسبابَ نموّ روحك وبنائها كما يفعل المربّي الشفيق.

أما رأيتَ مدرّبي بناء الأجسام؟ إنك إذا أخبرتَ أحدهم برغبتك في بناء جسمك بما يتناسب مع ممارسة لعبة كرة الطائرة، أو كرة القدم، أو التايكوندو مثلًا، فإنه يزوّدك ببرنامج لبناء الجسم ينسجم مع هذه الرياضة. فللعبة التايكوندو ـ على

سبيل المثال ـ يرتدي المدرّب قفّازًا خاصًّا ويطلب منك أن تركُل يده. فإذا شرعتَ بركلها أخذ يرفعها ـ شيئًا فشيئًا ـ إلى الأعلى. فهو مدرّبُ بناءِ أجسام ويعرف ما هو البرنامج الذي يُخضِعُك له كي تشتدّ عندك عضلات معيّنة إذا ما اتّبعته.

برمجة الله للحظات ما قبل الأذان

ألا وإنّ مربّيك في الأخلاق هو الله عزّ وجلّ، وهو أدرى باللحظة المناسبة لرفع الأذان كي تترقّى إذا صلّيتَ أوّل وقت الصلاة. حتّى إذا حانت الساعة التي ينبغي لك فيها انتشال قلبك من براثن الدنيا، وآن الأوان الذي يتحتّم عليك فيه نبذ رذيلة من رذائلك، حصلَ ذلك على أحسن وجه. بل إنّ الله سبحانه وتعالى يبرمج لك بنفسه لحظات ما قبل الأذان، فإن كنتَ صاحب دكّان ـ على سبيل المثال ـ بعثَ إليك بزبون موحيًا إليك بعقد صفقة معه، ثمّ ينادي ملائكته: «يا ملائكتي، ارفعوا الأذان وسط الصفقة. فإذا نهضَ للصلاة وهو على وشك إقناع الزبون

بشـراء بضاعتِـه، تلقّـى نـورًا عظيمًا. أمّـا إذا اسـتمرّ هذا العبـد الشـقيّ ـ والأذان يُرفـع ـ فـي إبـرام صفقتـه ولـم يذَرهـا مـن أجـل صلاتِـه بقـيَ علـى ظلاميّته.

يقول الرسـول الأعظم صلـى الله عليه وآلـه: «**لا يَزَالُ الشَّـيْطَانُ ذَعِـرًا مِـنَ الْمُؤْمِـنِ [غير قـادر على الوسوسـة فـي صدره] مَـا حَافَظَ عَلَى الصَّلَـوَاتِ الخَمْـسِ لِوَقْتِهِنَّ، فَـإِذَا ضَيَّعَهُنَّ [ولـم يصلّهِنّ لوقتهـنّ] تَجَرَّأَ عَلَيْـهِ فَأَدْخَلَهُ فِـي الْعَظَائِمِ**»[1].

٥. ترسيخ الصالحات في النفس

قلنـا إنّ الصـلاة تهب الإنسـان اسـتقلالًا روحيًّا. فإن اسـتقلّيتَ بنفسـك وحاربـت هـواك، صرتَ مـن أرباب المحبّـة والعشـق والعاطفـة، وإلا فـإنّ تـارك الصـلاة أسـير هواه، والمسـافة بيـن الانقياد للهـوى وبين الحبّ شاسـعة، لأنّ الجميـع يفـرّون ممّـن هو أسـير هواه.

١- وسائل الشيعة، ج٤، ص٢٨.

أتعلم ما الذي يُضعف في الإنسان الإبداع وقوّة الفكر والذاكرة؟ إنه الانصياع للهوى. فإذا أحبَبتَ تقوية ذاكرتك فعليك بالصلاة في أوّل وقتها وعلى أصولها. معنى هذا أن أداء الصلاة على نحو جيّد يبعث على تقوية فكر الإنسان وإبداعه وتركيزه. إذاً فما الذي يصنعه الشخص الضعيف في دروسه أو الذي لا يعمل ذهنُه وفكرُه على نحو سليم؟ من المؤكّد أنَّ عليه أنْ يحسّن صلاته. إذ يُقال إنّ ابن سينا كان إذا استعصَت عليه مسألة صلّى ركعتين، فإذا بالمسألة تُحَلّ[1].

الصلاة بأدب وفي وقتها، وهي المشحونة بمجاهدة النفس، ترفع مقدرة الإنسان على مواجهة الصعاب. فالبعض تراه يعلو أنينُه ونياحه لأيّ شدّة، فإذا حصل على نعمة بخلَت نفسُه فلم يعط لأحد شيئًا.

يصف الله سبحانه وتعالى الإنسانَ في سورة المعارج

١- شذرات الذهب، ج٥، ص١٣٣.

القرآن: لا يُصان من الحرص والبخل إلا المصلّون

بأنّه: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾، فإن الحرص يبلغ به حدًّا حتّى وكأنّه يريد حيازة العالم بأسره والتشبّث بكل ما فيه، وأنّه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، فهو جَزِع فَزِع يتعالى أنينه إذا أصابه شرّ أو خسران، ثم: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، فإذا نالته نعمة أو خير بخل بهما ومنعهما عن الآخرين.

فالله عزّ وجلّ يخبر في هذه الآيات الكريمة عن شرور الإنسان وسيّئاته ليبيّن أنّ بني آدم هم بهذا السوء. فما عسانا نصنع برذائل الإنسان هذه؟ وما السبيل إلى محوها؟ يقول الله متابعًا: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[1]؛ أي: المصلّون ـ لا غيرهم ـ ليسوا على هذا النمط. لماذا؟ لأنهم في نزاع دائم مع أنفسهم حين الصلاة، مما يقود إلى دفع هذه الشرور عن كياناتهم.

إلى هذا الحد الصلاة مؤثّرة؟

١- سورة المعارج، الآيات ١٩ ٢٢.

المرحلة الثانية

الصلاة بتفكّر

الفصل الخامس

مراعاة أدب الصلاة الباطني

بعد الصلاة بأدب، يأتي الدور للصلاة المؤدّاة بتفكّر وعن معرفة.

والصلاة بتفكّر هي الصلاة ذات المعنى[1]. ونحن بهذا ندخل ـ شيئًا فشيئًا ـ إلى باطن الصلاة. والواقع إنّ الصلاة بأدب هي تلك التي يراعَى فيها

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ فِي التَّفَكُّرِ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ» (ثواب الأعمال، ص٤٤).

أدب الصلاة الظاهري، وإنّ الصلاة بتفكّر هي شكل من أشكال مراعاة «أدب الصلاة الباطني». فبعد أن نصلي مدّةً من الزمن بأدب، يسعُنا الانتقال تدريجيًا إلى الصلاة بتفكّر. وبعد هذه الأخيرة يمكننا دخول مرحلة الصلاة بعشق ومحبّة وشعور قلبيّ.

الخطوة الأولى: عدم التفكير بغير الله

الصلاة بتفكّر في مرحلتها الأولى عملٌ سلبي يتمثّل في «عدم التفكير بغير الله»؛ أي يتعيّن عليك ـ بادي الرأي ـ أن تحاول عدم التفكير بما سوى الله أثناء الصلاة، حتى تصل ـ رويدًا رويدًا ـ إلى التفكير بالله تعالى.

ما معناه أنّ التفكير بالله فحسب يتأتّى عن طريق إقصاء التفكير بغيره مدّة من الزمن.

قد يقول أحدهم: «شيخنا، مشاكلي كثيرة. إن أفكارَ وخواطرَ مشكلات الحياة تؤذيني، فما الحيلة؟»

- «صلِّ صلاتك في أوّل وقتها وانسَ مشاكلك وأنت تصلّي. قل لنفسك: ليس من الأدب أن أفكّر بمشاكلي وأنا بين يدي الله. فكما تفعل بنعليك، اترُك مشاكلك عند الباب ولا تُدخلها معك!»

حكمة وجود «الكشوانيّة» في الأماكن المقدسة

لا بدّ أنّك شاهدت أماكن حفظ الأحذية في المزارات. فما الحكمة من وجودها؟ هل هي للمحافظة على نعليك من الضياع؟ ليس هذا فحسب، فلو كانت نعلُك عرضة للضياع فهل ستمتنع من الذهاب إلى المراقد الشريفة؟ من ذا الذي يرفض قصدَ مراقد الأولياء لاحتمال ضياع حذائه؟ ومن ذا الذي يُحجم عن زيارتها إذا غاب أصحاب الكشوانيّات[1] المحترمون؟! إنّك تخاطب أهل البيت عليهم السلام في زيارتهم: «**بِأَبِي أَنْتُمْ**

١- الكشوانيّة اسم يطلق على أماكن حفظ الأحذية عند مداخل مزارات أهل البيت عليهم السلام والأولياء وفي المساجد، وعادة ما يتولّى شخص أو أكثر مسؤولية استلام وتسليم الأحذية فيها.

وَأُمِّـي وَأَهْلِـي وَمَالِـي وَأُسْـرَتِي»[1]؛ أي: فدتكم روحي! وفِداكـم أبـي وأمـي وكل ما عنـدي! فالذي يكـون على استعداد لفـداء غيـره بنفسـه أفـلا يبـذل نعليـه؟!

إذًا الحكمـة مـن وراء الكشـوانيات شـيء آخـر. فلـو كان مـن جملـة آداب زيـارة حـرم الإمـام الرضـا عليـه السـلام مثـلًا أن: «اخلَـع نعليـك بالبـاب وادخـل» كان الـزُوّار ـ مـن دون شـكّ ـ سـيخلعون أحذيتهـم عنـد التقاطعـات المؤديـة إلـى المرقـد الطاهـر ويهرعـون للزيـارة كالمجانيـن. معنـى ذلـك أنـه حتـى لو لـم تكن هنـاك أماكـن لحفـظ الأحذيـة إذًا لَعبَّـرتَ عـن عشـقك بطريقـة مـا.

فما الغاية من هذه الكشـوانيات إذًا؟

الجـواب: إن بعـض الـزوار ضعفـاءُ الإيمـان ـ علـى أيّـة حـال ـ وقد ينشـغل بالهـم بأحذيتهم، فيعمـل القائم

١- من لا يحضره الفقيه، ج٢، ص٦١٤.

على الكشوانية على الاحتفاظ بأحذيتهم ليؤدّوا زيارتهم بطمأنينة وراحة بال.

الصلاة حرمُ الله فلا تدخُله بمشاكلك

روحي لصاحب كشوانيةِ باب حرم الله الفداء! إنّ حرم الله هو الصلاة، وكلّما أردت دخول هذا الحرم نادى بك صاحب كشوانيته الواقف بالباب: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾([1])، أي: «اخلع نعليك وناولني إيّاهما، واذهب لمناجاة ربّك».

لكن ما المقصود من النعل هنا؟ إنه ما يشغل الفكر من مشاكل الدنيا وكروبها وتعلّقاتها[2]. إذاً اخلع مشاغل الدنيا ومشكلاتها من نفسك كما تخلع نعليك وناولها لصاحب الكشوانية، ثم كبّر لصلاتك، وصَلِّ وأنت قرير العين مرتاح البال. لا

١- سورة طه، الآية ١٢.

٢- عن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال: «فِي قَوْلِ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمُوسَى عليه السلام: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ قَالَ: يَعْنِي ارْفَعْ خَوْفَيْكَ، يَعْنِي خَوْفَهُ مِنْ ضِيَاعِ أَهْلِهِ وَقَدْ خَلَّفَهَا تَمْخَضُ، وَخَوْفَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ» (علل الشرائع، ج١، ص٦٦).

تخَـف! فسـيحتفظ لك صاحب الكشـوانية هـذا بنعلك. بـل إن نعالـك هـذا (الـذي يمثّـل تعلّقاتـك ومشـاغلك ومشـاكلك) هـو على جانب من الخساسـة ودنـوّ القيمة ممـا لا يطمع فيـه أحد، فكـن مطمئنًّا، وتعـال إذا فرغت مـن صلاتـك لتتسـلّم نعليـك وتذهـب لحـال سـبيلك.

بـل إنّ الإخـوة القائميـن علـى أماكن حفـظ الأحذية فـي المـزارات لـن يقومـوا يومًـا بتلميـع حذائـك، أمـا صاحـب كشـوانية حـرم الله فسـيخيط لـك حـذاءك، إن رأى فـي أحـد جوانبـه خَرقًـا، ويلمّعه لك. إنه سـيصلح حياتـك إذا شـاهد فيهـا نقصًـا. فـإذا أتيـت بعـد الصلاة لاسـتلام حذائك قُلتَ مبهـورًا: «يا للروعـة، ما أجمله!»

أعلِمتَ من هو مسـؤول كشوانية حرم الله هذا؟

مَـن غيـر الله تعالـى يمكننـا أن نـودِع عنده ما يشـغلنا مـن مشـاكل إذا صلّينـا؟ فهـو تعالى يقول لـك: «عبدي، إذا كانـت ثمّـة مشـكلة تلمّ بك أو مَشـغلة تشـغل ذهنَك

فاستودعني إيّاها، على الأقل في هذه الدقائق القليلة التي تقف فيها للصلاة، وثق بأنّني سوف لا أُفسِدُها! فسوف لا يسوء حالك أكثر، لا تخَف!»

علاج المشكلة في التغاضي عنها أثناء الصلاة

حسبُك أن تنسى مشاكلك أثناء الصلاة. بل لا حاجة لنسيانها، فقط أخرجها مؤقّتًا من ذهنك وانبذها جانبًا. وإن خطرَت لك أثناء الصلاة مسألة أو مشكلة، فخاطب نفسك: «لا.. ليس هذا بالوقت المناسب، سأفكّر فيها بعد حين، فأنا غارق متخبّط في مشاغل الدنيا ليل نهار ولا أريد شَغل فكري بها في هذه الدقائق القلائل».

قل: «الله أكبر»، الله أكبر من مشكلاتي. أنا الآن عبد، ومأمور بأن أقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وبأن أقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. لديّ أمرٌ بقول: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وقول: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. لستُ في الوقت الحاضر سوى عبد عليه أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. وهكذا.

فإن تعاطيت مع القضية بهذه الصورة ونسيت مشاكلك حال الصلاة فسترى بعدها ـ بإذن الله ـ أنّ هذه المشاكل قد حُلَّت؛ فإمّا أن تنضج أنت بالقدر اللازم فلا تعود تتأوّه بسبب مشاكلك، أو أن تتضاءل الأخيرة إلى درجة لا تستحق معها الأنينَ والبكاء. كيف حصل هذا؟ حصل هذا لمجرد أنك التزمت بأدب الصلاة الباطني بضع دقائق ووجّهت الخطاب إلى مشكلاتك ومشاغلك أنْ: «لا».

الصلاة بتفكّر في السجن

وصيتي للسجناء: انسوا مشاكلكم أثناء الصلاة

إنّ في وسع المرء أن يأتي بصلاته بتفكّر وهو في غمرة كروبِه وانشغال ذهنه.

التقيتُ ذات مرّة في أحد سجون البلاد ببعض السجناء. فوجدتهم، وأنا على وشك البدء بمحاضرتي، في حالة يُرثى لها من البؤس وخيبة الأمل حتّى لا يبدو عليهم أي إقبال أو رغبة في الاستماع إلى حديثي. والحقّ معهم. فلا بد أنّهم

قالوا بينهم وبين أنفسهم: «شيخنا، تتناول فطورك مع زوجتك وأولادك ثم تأتينا لتُتحِفَنا بكلامك؟! أنت لا تدري أيّ كَرب نحن فيه؛ فهذا ينتظر حكم إعدامه، وذاك متورّط في تحرير صك بلا رصيد، وآخر زوجته طريحة الفراش! نحن نعاني من ألف مشكلة ومشكلة، فما الذي سيتغيّر إذا أصغينا إليك؟! فلا يدري الشبعان بما يقاسي الجوعان، ولا يَخبَر الراكب ما في قلب الراجل!»

ولما رأيتُ الحال على ما وصفتُ قلت لهم: «عذرًا، هلاّ تناسيتم مشاكلكم خمسَ دقائق، بل وتناسيتم أنكم في سجن أصلًا، وخرجتم من هذا الحال الذي أنتم فيه»؟

ولعلّه كان طلبًا ثقيلًا جدًّا، لكنّني أصرّيت عليهم وقلت لهم: «لخمس دقائق فقط اخرجوا من أذهانكم فكرة أنكم في سجن! أُقسم لكم أنّكم إذا فعلتم هذا فإنّ سجنكم لا يطول أكثر، وإنّ مشاكلكم لا تتفاقم،

وسوف لا يتغيّر شيء. كل ما أرجوه منكم هو أن تخرجوا من هذه الحالة لخمس دقائق!»

كرّرت طلبي مرات عدّة حتى اقتنعوا بالتدريج. كانَت أعينُهم تحكي هذا الاقتناع. فكّرتُ مع نفسي أنْ ماذا سأقول لهؤلاء القوم؟ أقول لهم: أخرِجوا مشاكلكم من أذهانكم خمسَ دقائق! ثمّ ماذا؟ لتُنصتوا إلى ما سأقول؟! أحسستُ أن طلبي مستهجَن، فغيّرتُ وجهة كلامي وقلت: «عندما تقفون للصلاة، انسوا لخمس دقائق أنكم في سجن.. انسوا أنّكم آباء، أو أنكم تحت وطأة الدَّين، أو أنّ أزواجكم أو أولادكم مرضى، بل انسوا أنّ مصيركم الإعدام! لا تخافوا، فلن تزداد مشاكلكم بهذا النسيان».

حلّ المشكلة بسبب نسيانها أثناء الصلاة

ثم قلت: «حاولوا نسيان جميع مشاكلكم وكروبكم في هذه الدقائق القليلة التي تقفون فيها للصلاة وليقل كلٌّ منكم لذاته: أنا الآن عبدٌ لله ليس

إلا، لستُ بِأَب، ولا بمدين، ولا بسجين، ولا بمريض، ولا بمكروب. أنا لست شيئًا من هذا كلّه، أنا عبد الله فقط. ثم ليُكَبِّر، وليشرَع في صلاته. فإذا فرغ منها فليرجع إلى سابق أفكاره وهمومه!» ثمّ وعدتهم بأن الصلاة بهذه الطريقة ستحلّ الكثير من مشاكلهم، فلقد جرّبنا ذلك ولمسناه لمس اليد.

عن أحمد بن محمّد بن أبي نَصر قال: قُلْتُ لأَبِي الحَسَنِ الرضا عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنِّي قَدْ سَأَلْتُ اللهَ حَاجَةً مُنْذُ كَذَا وَكَذَا سَنَةً وَقَدْ دَخَلَ قَلْبِي مِنْ إِبْطَائِهَا [وعدم قضائها] شَيْءٌ. فقال: «... **لَوْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ قَوْلًا [بأنّ حاجتك تُقضى] أَكُنْتَ تَثِقُ بِهِ مِنِّي؟**» فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِذَا لَمْ أَثِقْ بِقَوْلِكَ فَبِمَنْ أَثِقُ وَأَنْتَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ! قَالَ: «**فَكُنْ بِاللهِ أَوْثَقَ فَإِنَّكَ عَلَى مَوْعِدٍ مِنَ اللهِ، أَلَيْسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:**

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]»[2]. فلقد ضمن الله عزّ وجلّ قضاء حوائج أهل التقوى، وأيّ تقوى هي أفضل من الصلاة الجيّدة، وهي أهمّ ما أمر الله به؟!

إعادة التوصية ذاتها لرئيس السجن ومرشده

وشرعتُ بالحديث مع الإخوة السجناء. وكان مسؤول السجن قد أتى هو الآخر وجلس معهم ينصت لكلامي احترامًا للعِمامة. وحينما رأيت وجوهَهم وقد أخذت تتورّد وبدوا على استعداد لأن يخاطبوا ربهم في الصلاة التالية أن: «إلهي، انسَ أننا داخل السجن أو خارجه، نحن الآن عبادُك فحسب.. الله أكبر»، التفتُّ إلى رئيس السجن مخاطبًا إيّاه: «يا رئيس السجن، هل لك أنت أيضًا لحظةَ وقوفك للصلاة أن تنسى أنك رئيس السجن؟! هل في

1- سورة البقرة، الآية ١٨٦.

2- الكافي، ج٢، ص٤٨٨.

وسعك أن لا تفكّر في أنه إلى متى يريدون الإبقاء عليك في هذا المنصب، ومتى سيأتي أمر نقلك، ومتى تستلم راتبك، ومتى تعود إلى بيتك،...الخ؟!»

فأجاب من فوره معدّلًا جلسته: «أجل شيخنا».

وكان مرشد السجناء، الذي يأتي يوميًا عند الظهيرة لإمامة الجماعة، حاضرًا كذلك مع الجمع. فتوجّهتُ إليه بالقول: «أستميحك عذرًا أيها الشيخ، فأنا كناقل التمر إلى هجَر. هل لك أنت أيضًا أن تنسى حين الصلاة أنّ امرأتَك ـ مثلًا ـ قد طلبت منك شراء شيء عند عودتك إلى المنزل، أو ما الذي ستصنعه مع المشكلة المالية الكذائية،..الخ. هل لك أن تنسى كل شيء؟»

فابتهج السجناء لقولي هذا لرئيس السجن ومرشده وسُرّوا بأنه: ها قد أتى شخص يخاطبنا بما يخاطب به الجميع.

إعادة التوصية لصورة الإمام والسيد القائد

ولاحت لي، وأنا أتحدّث، صورة الإمام الخميني قدّس سرّه فوجّهت الخطاب إلى الصورة قائلًا: «هل بإمكانك يا سماحة الإمام أن تنسى أثناء الصلاة أنك قائد الثورة وأن آمال العالم معقودة عليك؟ وهل في وسعك ساعتَها أن تقول مخاطبًا ربّك: لستُ إلا عبدًا لله؟» ثمّ استدركتُ قائلًا: «ولقد كان الإمام هكذا أيّها السادة».

وكانت صورة الإمام الخامنئي دام ظله معلّقة هناك أيضًا فحوّلت وجهي إليها قائلًا: «يا سيدي، أيتسنّى لك أثناء الصلاة أن تنسى العالَم وتخاطب الله بالقول: إلهي، أنا عبدك؟» ثم تابعتُ بأنّ السيد القائد هو فعلًا هكذا.

قصة صلاة الإمام الخامنئي

يروي أحد علماء الدين: «كنتُ قد نُفيت قبل الثورة مع سماحة السيّد القائد إلى مدينة إيرانشهر، إحدى قرى محافظة سيستان وبلوتشستان، وقد قدِم للقائنا جمع من الناس وعلماء الدين من مدن شتّى.

فآن أوان الصلاة، وقمنا جميعًا استعدادًا لأداء صلاة الجماعة. ووقف آية الله الخامنئي في المقدّمة يؤمّ المصلين. وفي الأثناء دخلَت إلى المكان معزاة وأخذت تنطّ هنا وهناك حتى أضحكتنا جميعًا، ولم يواصل أحدٌ منا صلاتَه حتى النهاية بطمأنينة وهدوء إلاّ سماحة القائد. فسألناه بعد فراغه: كيف استطعتَ ضبط أعصابك وتجنّب الضحك؟ فقال: أنا لم ألتفت إلى المعزاة أصلًا!»

حاوِل أن لا تلتفت أثناء الصلاة إلى أمور أخرى، وأن تنسى مشاكلك وانشغالاتك ولا تفكّر فيها. بل لا تسمح أبدًا لخيالك أن يسرح في أماكن أخرى.

قد يقول قائل: «كيف لي، يا شيخنا، أن ألتفت إلى الله؟»

فأقول له: «افترض أنّك لا تستطيع الالتفات إلى الله، لكن ـ على الأقلّ ـ قل في ذات نفسك كلّما

انصرف ذهنك إلى شيء آخر: من القبيح ومن عدم اللياقة أن يفكر المرء، وهو في صلاته، في شيء غير الله». ضع همومك كلّها في نعليك واتركها لدى صاحب الكشوانية، وسترى أي حال من الإقبال ستحصل لك.

فبعد الصلاة بأدب، يأتي الدور للصلاة بتفكّر، ويحين الوقت لكي ترفع السوط وتجلد فكرك ولا تذره يعبث وأنت تصلي. فلا تسمح له بالذهاب إلى أيّ مكان متى شاء. ضَع، قبل أن تدخل في الصلاة، جميع أفكارك وما تقاسيه من مشكلات في حذائك وسلّمه إلى مسؤول الكشوانية عند باب حرم الصلاة. وما مسؤول كشوانية حرم الصلاة غير الله نفسه. إنه يخاطبك: «اترك نعليك عندي.. سلّمني مشاكلَك.. لا تخف.. سوف لا أزيد عليها شيئًا، بل سأعالج بعضها أيضًا!»

ولا تقتصر التوصية هذه على المشكلات، بل إنّ عليك في ساعة الفرح والمسرّة أيضًا أن تُغضي عن مسرّاتك حينما تقف للصلاة.

فكم هو جميل ـ على سبيل المثال ـ أن يضع العريس والعروس فرحتَهما جانبًا في الليلة الأولى بعد زفافهما ويخاطب كلّ منهما ربّه إذا وقف للصلاة بين يديه: «إلهي، أنا لستُ الآن إلاّ عبدًا لك» ثمّ يشرع في صلاته. فلو أنّهما استهلاّ حياتهما بهذه الطريقة فإنّها ستُعمَّر تعميرًا يغبطهما عليه العالم أجمع.

ولا أطيل على القارئ، فبعد أن طلبتُ من السجناء أن ينسوا، لخمس دقائق، كل معاناتهم ولا يفكّروا بشيء سوى الله عزّ وجلّ، ووُفِّقتُ لإقناعهم بذلك سألتهم أن يواصلوا هذا البرنامج أربعين يومًا، قائلًا لهم: «سآتي بعد هذه المدة لألقي عليكم محاضرة أخرى كدرس ثانٍ في الصلاة». وأضفت: «حتى يأتي

اليـوم الأربعـون استودِعوا اللهَ، كلّما وقفتـم للصلاة، جميـعَ أفكاركـم وقولـوا لـه: إلهـي، سـوف لا نفكّـر ونحـن نصلّـي بمسـرّات حياتنـا ومكارههـا، فنحن الآن واقفـون ببابـك.. مِلـكٌ لـك وحـدك.. نخاطبـك أنت. صلّـوا على هـذا النحـو أربعيـن يومًـا، وسـيكون لـي معكـم محاضـرة بعد هـذه المـدّة».

ثـم قلـت بعـد دقائـق: «اسـمحوا لـي أن أبـوح لكـم الآن بالمحاضـرة التـي سـألقيها عليكـم بعـد أربعيـن يومًـا، فهـي لا تسـتغرق أكثر من عشـر ثوان! أي سـألقي عليكـم الآن هـذه المحاضـرة ذات الثوانـي العشـر، لكـن لا تنصتـوا إليهـا، بـل اكتبوهـا فقـط، وضعوهـا في سـجّاداتكم، ولا تقرأوهـا الآن لأنّهـا سـتفقد أثرها. فإن انقضَـت الأيـام الأربعـون فافتحـوا الورقـة واقـرأوا مـا فيهـا. هـذه المحاضـرة هي كالتالـي: «بسـم الله الرحمن الرحيـم. طوبـى لمـن هـم فـي صـلاة دائمـة، والسـلام عليكـم»».

فلو استطعت بعد أربعين يومًا من الصلاة بتفكّر أن تقول للعالم أجمع: «أنا عبدٌ.. ولي مولىً.. وليس للعالَم، في أيّ وقت وتحت أيّ ظرف، من أثرٍ علَيّ» فقد تقترب من شخصية مالك الأشتر. فلقد كان مالك الأشتر رجلًا مستقلاً. وكان ـ بحسب أمير المؤمنين عليه السلام ـ إذا لم يتمكن، في مواجهة أمرٍ ما، من الاتّصال بالإمام عليه السلام، فبَتَّ فيه اعتمادًا على رأيه وتحليله الشخصيّ، كانت النتيجة محطّ تأييد الإمام عليه السلام [1]. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام فيه إعظامًا لشخصيّته: «**مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، وَاللهِ لَوْ كَانَ جَبَلًا لَكَانَ فِنْدًا**[2]، **وَلَوْ كَانَ**

١- لما ورد خبر مقتل محمّد بن أبي بكر كتب علي عليه السلام إلى مالك الأشتر يستقدمه إليه ليولّيه على مصر فقال له عندما ورد عليه: «لَيسَ لَها غَيرُكَ فَاخْرُجْ إِلَيْهَا رَحِمَكَ اللهُ، فَإِنّي إِنْ لَمْ أُوصِكَ اكْتَفَيْتُ بِرَأْيِك» (الغارات، ج١، ص١٦٥الأمالي للمفيد، ص٧٩ ٨٠).

٢- الفِنْد: الجبل العظيم.

حَجَـرًا لَـكَانَ صَلْدًا، لا يَرْتَقِيـهِ الحَافِرُ، وَلا يُوفِـي عَلَيْهِ[١] الطَّائِر»[٢].

أتـدري لِـمَ كان مالـك الأشـتر قويًـا مسـتقلاً إلى هذا الحد؟

لأنـه لـم يكن يغفـل لحظة واحـدة عن أنّ الكـون كلّه بيـد الله تعالـى، أي إنه كان في صـلاة دائمة.

ومـا أعجـب قـول أمير المؤمنيـن عليـه السـلام فـي الأشـتر حيـن قـال: «**رَحِـمَ اللهُ مالِـكًا فَلَقَـد كانَ لـي كَما كُنـتُ لِرَسـولِ اللهِ صلـى الله عليـه وآلـه**»[٣]. وكان علـيّ عليـه السـلام يبكـي علـى مالـك بعـد سـماعه بخبـر شـهادته ويقـول: «**عَلَـى مِثْـلِ مَالِـكٍ فَلْتَبْـكِ الْبَوَاكِـي، وَهَـلْ مَوْجُـودٌ كَمَالِـكٍ؟**»[٤]. إنّ كلامـه عليه السـلام في وصـف مالـك ليُضـرم النـار فـي قلـب الإنسـان.

١- لا يوفي عليه: لا يصل إليه.

٢- نهج البلاغة، الحكمة ٤٤٣.

٣- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٥، ص٩٨.

٤- الغارات، ج١، ص١٧٠.

نظر الله المتواصل إلى عبده

قلق الخاطب من أن يرفضوه

هل شاهدتم الخاطب عند الخطوبة كيف أنه يجلس بكل أدب ووقار، مطأطئ الرأس، لا يجرؤ على رفعه خجَلًا؟ وكيف أنه إذا قدّموا له فنجانًا صغيرًا من الشاي قال بصوت ناعم، لا أدري من أين أتى به: «كلا، شكرًا جزيلًا!» مع أنه لا يقنع في العادة بأقل من قدح كبير من الشاي؟ وكيف أنّ الآخرين يتناولون المكسّرات والفاكهة والحلوى ويتمازحون مع الخاطب بالقول: «كيف الحال أيّها العريس؟!» وهو يظلّ ينبّههم: «هِس، هِس»، أي: حذار من الشَّوشَرَة!

ألا وإنّ الخُطّاب في قديم الزمان يعترفون جميعًا بأنّهم وإن لم يكونوا، ساعةَ الخطوبة، يتصرّفون على مزاجهم مثل الباقين وكانوا يضغطون على أنفسهم، لكنهم لم يكونوا يعانون من هذا الموقف أشدّ المعاناة، بل وكانوا يستمتعون به أيضًا.

يقال للخاطب: «أيّها العريس، أرِح بالَك! لقد كنت قبل حين تتسلق الجدار الأملس، فماذا دهاك تجلس أمامنا الآن كالمؤدّب جدًّا؟! لماذا أنت صارم مع نفسك كل هذه الصرامة؟!»

فيجيب: «لأنّ القوم يدرسون قبولي أو عدم قبولي. فأنتم قد خضتم هذه التجربة وقُضي الأمر وليست لديكم مشكلة من هذه الناحية. أما الليلة فالدور دوري، وإنّ القوم ينظرون إن كانوا سيقبلون بي، لا بكم. إنّهم يمعنون النظر فِيَّ».

عش حالة الخطوبة عمرك كله!

ألا يسعك يا عزيزي أن تعيش حالة الخطوبة هذه طيلة عمرك؟ أي أن لا تكون كالآخرين تصنع ما يصنعون. قل لنفسك: «إنّهم في صدد أن يقبلوا بي، لا بغيري. فالله تعالى يراقبني على نحو موصول». إنه ذات الربّ الذي قال في وصف نفسه:

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾[1]. إنّه عزّ وجلّ ينظر إلى عبده باستمرار ويقول: هل سيصبح عبديَ المحبوب أم لا؟ هل سيغدو جنديَّ مهديِّي أم لا؟

مرحى لأولئك الفتيان والفتيات الذين ما إن يسمعوا صوت المؤذّن حتّى يقوموا من مقامهم، ويتّخذوا لأنفسهم زاوية من زوايا البيت عاكفين على صلاتهم دون أن ينظروا إن كان باقي أفراد العائلة قد قاموا إلى الصلاة أو لا؟

إنّ من طبع الشابّ كسر قيود التقاليد. فالشابّ لا يريد أن يشابه أباه وأمّه، بل يرغب في التقدّم عليهما وسبقهما. فإن تخلّفا عن موعد الصلاة في أوّل وقتها، سبَقَهما إلى سجّادته وكبّر تكبيرة الإحرام. فما أحسن أن يستقلّ المرء في حياته، فلا ينظر إلى الآخرين، وأن يعيش على الدوام في أجواء «الخطوبة»!

١- سورة البقرة، الآية ٢٥٥.

فمـن هـو «الخاطـب» في هـذه السـاعة؟ أي إلـى مَن ينظـر الله عـزّ وجلّ فـي هـذه اللحظات؟

علـى كل فـرد أن يقـول فـي ذات نفسـه: «إنّ الله ينظـر إلـيّ الآن». فـالله لا ينظـر إلـى جميـع النـاس، بـل ينظـر إليـك. فليتعـاطَ الجميـع مـع القضيـة بهـذه الرؤيـة، وهـي: «إنّهـم فـي صـدد اختيـاري أنـا، فـلا ينبغـي أن أخلـط نفسـي مـع الباقيـن». فـإن نظـر المـرء بهـذه الرؤيـة، طـار مـن مكانـه بـكل خفّـة بمجـرّد أن يسـمع صـوت المـؤذّن وراح يصلّـي غيـر مُكتـرِثٍ بالآخريـن.

احسب لنفسك حسابًا خاصًا

أسـتحلفك بـالله أيهـا العزيـز أن لا تراقـب الآخريـن فـي قضيـة مثـل الصـلاة. فـإن شـاهدتني أنـا أُسـيء أداءَ صلاتـي، فـلا تقـل: «إذا لـم يـأتِ فـلان بصلاتـه علـى النحـو المطلـوب وهـو معمَّـم، فمَـن أنـا لأصلي أحسَـن منـه؟!». كلا، أدِّ صلاتَـك علـى أصولهـا، وأقـم لنفسـك وزنًـا خاصًّـا، فنحـن الذيـن نخـرّب صـلاة

بعضنا البعض، ذلك أنّنا نراقب الآخرين، ونقول: «نحن مثلهم!»، وهذه المراقبة سُمٌّ قاتل.

فإن كنتَ جادًّا في هذا الأمر، وأقمتَ لنفسك وزنًا يختلف عن الآخرين، فستصبح يوم الجمعة وأنت تقول لنفسك: «الويل لي! الناس جميعًا ينتظرون مهديَّ فاطمة عجل الله فرجه الشريف، أمّا هو عجل الله فرجه الشريف فينتظرني أنا التعيس الحال! فلم يَبقَ إلاّ أن أستقيم أنا! فإن استقامَت حالي، ظهرَ المهدي عجل الله فرجه الشريف ..».

أدنى درجات المحبّين في كلام أمير المؤمنين

سأل أعرابيّ عليًّا عليه السلام عن درجات المُحبّين ما هي؟ فقال عليه السلام: «**أَدْنَى دَرَجَاتِهِمْ مَنِ اسْتَصْغَرَ طَاعَتَهُ وَاسْتَعْظَمَ ذَنْبَهُ وَهُوَ يَظُنُّ أَنْ لَيْسَ فِي الدَّارَيْنِ مَأْخُوذٌ غَيْرُه**»[1].

١- مستدرك الوسائل، ج١، ص١٣٣.

إذًا أدنى درجات المحبّين تتطلّب - على الأقل - ثلاثة شروط: الأوّل أن يرى المرء عباداته وجميع صالحاته صغيرة، والثاني أن يرى ذنوبَه عظيمة جدًّا وثقيلة كلّ الثِّقَل سواءٌ أتى بها حقًّا أم لم يأت بها بحسب الظاهر، والثالث أن يحسب نفسَه «الخاطبَ» الوحيد في عالم الوجود، وكأنه وحده الذي ينبغي أن يُنظَر في أمره ويُؤاخَذ ويُلام: «**وَهُوَ يَظُنُّ أَنْ لَيْسَ فِي الدَّارَيْنِ مَأْخُوذٌ غَيْرُه**». فإحساسه يخبره: «بأن الله لا ينوي محاسبة أيّ أحد غيرَك، فما شأنك بالآخرين؟!» وهذا هو مفاد كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

تقول الرواية: «**فَغُشِيَ عَلَى الأَعْرَابِيِّ** [من عظمة كلام الأمير عليه السلام] **فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: هَلْ دَرَجَةٌ أَعْلَى مِنْهَا؟** قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ سَبْعُونَ دَرَجَةً**»، فهذه كانت أدنى درجات المحبّين!

بعضنا البعض، ذلك أنّنا نراقب الآخرين، ونقول: «نحن مثلهم!»، وهذه المراقبة سُمٌّ قاتل.

فإن كنتَ جادًّا في هذا الأمر، وأقمتَ لنفسك وزنًا يختلف عن الآخرين، فستصبح يوم الجمعة وأنت تقول لنفسك: «الويل لي! الناس جميعًا ينتظرون مهديَّ فاطمة عجل الله فرجه الشريف، أمّا هو عجل الله فرجه الشريف فينتظرني أنا التعيس الحال! فلم يَبقَ إلاّ أن أستقيم أنا! فإن استقامَت حالي، ظهرَ المهدي عجل الله فرجه الشريف ..».

أدنى درجات المحبّين في كلام أمير المؤمنين

سأل أعرابيّ عليًّا عليه السلام عن درجات المُحبّين ما هي؟ فقال عليه السلام: «**أَدْنَى دَرَجَاتِهِمْ مَنِ اسْتَصْغَرَ طَاعَتَهُ وَاسْتَعْظَمَ ذَنْبَهُ وَهُوَ يَظُنُّ أَنْ لَيْسَ فِي الدَّارَيْنِ مَأْخُوذٌ غَيْرُه**»[1].

١- مستدرك الوسائل، ج١، ص١٣٣.

إذًا أدنى درجات المحبّين تتطلّب ـ على الأقل ـ ثلاثة شروط: الأوّل أن يرى المرء عباداته وجميع صالحاته صغيرة، والثاني أن يرى ذنوبَه عظيمة جدًّا وثقيلة كلّ الثِّقَل سواءٌ أتى بها حقًّا أم لم يأت بها بحسب الظاهر، والثالث أن يحسب نفسَه «الخاطبَ» الوحيد في عالم الوجود، وكأنه وحده الذي ينبغي أن يُنظَر في أمره ويُؤاخَذ ويُلام: «**وَهُوَ يَظُنُّ أَنْ لَيْسَ فِي الدَّارَيْنِ مَأْخُوذٌ غَيْرُه**». فإحساسه يخبره: «بأن الله لا ينوي محاسبة أيّ أحد غيرَك، فما شأنك بالآخرين؟!» وهذا هو مفاد كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

تقول الرواية: «فَغُشِيَ عَلَى الأَعْرَابِيِّ [من عظمة كلام الأمير عليه السلام] فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: هَلْ دَرَجَةٌ أَعْلَى مِنْهَا؟ قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ سَبْعُونَ دَرَجَةً**»، فهذه كانت أدنى درجات المحبّين!

المرحلة الثانية: الصلاة بتفكّر

تعريف بالمرحلة الثالثة: الصلاة المقرونة بالمشاعر

بعد أداء الصلاة بأدب وبتفكّر، يأتي الدور للصلاة المؤدّاة بعشق ومحبّة. وبتعبير آخر: بعد أن التزم المصلّي بالأدب الظاهري والفكري، يأتي دور مراعاته الأدب القلبيّ. فالمرحلة الثالثة من الصلاة الحَسَنة هي «الصلاة بمشاعر» وهي تلك المقرونة بالمحبّة وحضور القلب.

ولا يتّسع المجال هنا للخوض في هذه المرحلة من الصلاة الحسنة وسأكتفي بالتعريف بها وذكر بضع عبارات للإمام الخمينيّ رضوان الله عليه في هذا الخصوص، لأُرجع القارئ بعدها إلى ما ألّفه علماؤنا الأعلام في هذا المضمار.

كلام الإمام الخميني حول بعض الآداب القلبية للعبادة

يقول إمامنا الراحل رضوان الله عليه في كتابه «آداب الصلاة»: «أحد أهم الآداب القلبية، وهو الذي قد تندرج الكثير من الآداب في عداد مقدّماته، وتفقد

العبـادة روحهـا ومعناهـا مـن دونه، والـذي يُعـدّ ـ بحدّ ذاتـه ـ مفتاح قفـل الكمـالات وباب أبواب السـعادات، وهـو ـ فـي الأحاديث الشـريفة ـ مـن نوادر الأمـور التي حظيَـت بـكلّ هذا الذكـر وقلائل الآداب التـي نالت كلّ هـذا الاهتمام، هـو «حضـور القلب»... وكما قد سـلف القـول فإنـه لا تعطـي العبـادات والمناسـك والأذكار والأوراد نتائجهـا كاملـة إلا إذا أضحـت صـورة باطنيـة للقلـب، وعُجِـن بهـا باطـن ذات الإنسـان، واتّخـذ قلبُه صـورة العبوديـة، وخرج مـن حالة الاعتـداد والتمرّد...

والآن نقـول: إنّ أحـد أسـرار العبـادات وفوائدهـا المهمّـة، والـذي يُعـدّ كلُّ شـيء مقدّمـةً لـه، هـو أن تتسـخّر مملكـة الباطـن والظاهـر بأسـرها لإرادة الله تعالـى، وتتحـرّكَ بأمـره، وتصيـر القـوى الملكوتيـة والمُلكِيـة للنفس جنـودًا لـه، ويتّخـذ الجميـعُ ـ نسـبةً إلـى الحـقّ تعالـى ـ صفـة ملائكتـه عـزّ وجـلّ. وهـذه ـ بحـدّ ذاتهـا ـ إحـدى المراتـب الواطئـة لفنـاء القـوى

والإرادات في إرادة الحقّ تعالى، والتي تترتّب عليها ـ شيئًا فشيئًا ـ نتائجُ ضخمة، فيغدو الإنسان الطبيعي إلهيًّا، وترتاض النفسُ بعبادة ربّها، ويبيد جنودُ إبليس عن بكرة أبيهم مندحرين، ويستسلم القلبُ وقواه للحقّ سبحانه، ويتجلّى الإسلام ببعض مراتبه الباطنيّة فيه»[1].

وفي الختام أقدّم لك يا صديقي نصيحتين أخويّتين.

فإن رغبتَ يا عزيزي أن ترتقي بصلاتك درجةً نحو الأحسن، فصلِّ صلاة الليل بين الحين والآخر. فنافلة الليل وصلاتها تدعمان الفرائض أيّما دعم وتُكملان نقائصها[2]. وصلاة الليل تمنح الإنسان

١- آداب الصلاة (النسخة الفارسيّة)، ص٣١، ٣٢.

٢- عن علي بن الحسين عليه السلام: «..أَتَعْلَمُ أَنَّهُ لا يَقْبَلُ مِنْ صَلاةِ الْعَبْدِ إِلاّ مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، قَدْ هَلَكْنَا إِذًا! قَالَ: كَلاّ إِنَّ اللهَ يُتِمُّ ذَلِكَ بِالنَّوَافِلِ» (دعائم الإسلام، ج١، ص١٥٨).

قـدرة هائلـة، وتمحـو ذنوبـه[1]. فـأنْ يسـتيقظ المرء من رقـاده مـن أجـل صـلاة الليـل ويقف وحيـدًا علـى باب ربّـه لهـو فـي منتهـى الروعـة واللذة.

النصيحـة الثانيـة هـي أن تسـتغفر ربَّك مـن الصلوات التـي سـبقَ أن صلّيتَهـا. فـدع النـاس يسـتغفرون الله من معاصيهـم، أمـا أنـت فقل لـه: «إلهـي، أيُّ قبيـح ارتكبتُه بهـذه الصلـوات الهزيلة التـي صلّيتها!»، وأكثِر ـ بسـبب صلواتِـك السـابقة ـ مـن ترديـد: «إلهـي، العَفـو» كـي يتولّـى الله سـبحانه إصلاحَها.

اللهـمّ إنّـا نسـألك التوفيـق للالتـزام بـآداب الصـلاة وأدب الوقـوف بيـن يديـك.

١- عـن أبـي عبـد اللهِ عليـه السـلام فـي قـول الله عـزّ وجـلّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (هـود، ١١٤) قـالَ: «صَـلاةُ المُؤْمِـنِ بِاللَّيْـلِ تَذْهَـبُ بِمَـا عَمِـلَ مِـنْ ذَنْـبٍ بِالنَّهَـارِ» (ثـواب الأعمـال، ص٤٢).